تركيا: ٧,٥ ليرة • أوروبا: ٣,٥ يورو • أمريكا: ٥ دولارات • المملكة العربية السعودية: ١٢ ريالا سعوديا • اليمن: ٣٧٥ ريالا يمنيا • المغرب: ٢٠ درهما • الجزائر: ٢٥٠ دينارا

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

المضحّون

سارِعْ ولا تتوانَ، وأقوامًا من النيران انتشِل..

مُدَّ يديك، وضُمّهم إليك،

حتى ولو بنفسك ألقيتَ، وبالنار اشتويتَ..

أنت سُلوان المعذَّبين، وعزاء المتألمين..

سبيلك سبيل الرائد الأعظم،

ورجل الإنسانية الأكرم ﷺ.

* * *

ISSN 1306-1879

www.hiramagazine.com

Kasım - Aralık 2014 Sayı: 45 Fiyatı: 7,5 TL.

نور وفتح

قراءة في فكر سعيد النورسي وفتح الله كولن

هذا الكتاب يشكّل رحلة إلى آفاق الإشراق الوجداني والفكري، والإبهار الجمالي، في كتابات هَرَمَين من أهرام الفكر والدعوة في العصر الحديث؛ ممن يحملون في طواياهم هموم الأمة وأمانيها، في يومها وغدها؛ الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، الأستاذ محمد فتح الله كولن.

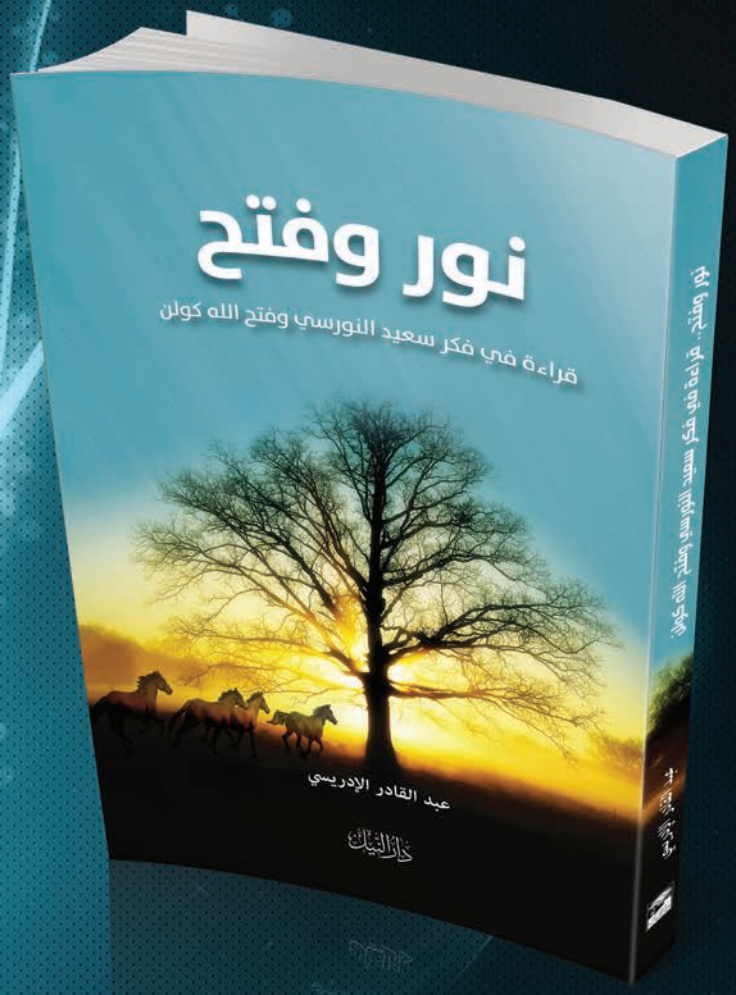

دار النيل : ٢٢ جـ- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر
تليفون وفاكس : 5-20226134402+ الهاتف الجوال : 201000780841+
daralnile@daralnile.com
www.daralnile.com

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين عن:

Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş

İstanbul / Türkiye

HİRA

İlim Düşünce ve Kültür Dergisi

صاحب الامتياز

مصطفى طلعت قاطيرجي أوغلو

المشرف العام

نوزاد صواش

nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير

هانئ رسلان

مدير التحرير

أجير أشيوك

المخرج الفني

مراد عرباجي

المركز الرئيس

HIRA MAGAZINE

Kısıklı Mah. Meltem Sok.

No:5 34676 Üsküdar

İstanbul / Turkey

Phone: +902163186011

Fax: +902164224140

hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع

دار النيل للطباعة والنشر

٢٢ ج- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - التجمع الخامس- القاهرة الجديدة

تليفون وفاكس: 5-20226134402+

الهاتف الجوال : 201000780841+

جمهورية مصر العربية

نوع النشر

مجلة دورية دولية

Yayın Türü

Yaygın Süreli

الطباعة

Çağlayan Matbaası

İzmir - Turkiye

Tel:+90 (232) 252 20 96

رقم الإيداع

١٣٠٦-١٨٧٩

التصور العام

- حراء مجلة علمية فكرية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ في ما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- للمجلة حق نشر المادة المرسلة إليها في موقعها على الإنترنت دون إذن من كاتبها ما لم يؤكد الكاتب أثناء الإرسال على رغبته في النشر في المجلة المطبوعة. علمًا بأن ما ينشر في الموقع إلكترونيًا لا يترتب عليه مكافأة مالية.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتَّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

YEMEN
مكتب حراء للنشر والتوزيع
شارع بغداد، مقابل بريد بغداد، صنعاء - اليمن
Phone: +967 1 214774
Fax: +967 1 204494
GSM: +967 736027560

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 22

SUDAN
مركز دار النيل، مكتب الخرطوم
أركويت مربع 48 منزل رقم 31 - الخرطوم - السودان
Phone: 0024 999 559 92 26 - 0024 915 522 24 69
hirasudan@hotmail.com

JORDAN
شركة زوزك/شميساني شارع عبد الحميد شرف، بناية رقم:61
عمان/الأردن.
Phone: +962 656 064 44
GSM: +962 775 935 756
hirajordan@woxmail.com

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Phone: +971 266 789920

MAURITANIA
Phone: +2223014264

SYRIA
GSM: +963 955 411 990

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton,
NJ, 07011, USA
Phone:+1 732 868 0210
Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
الوطنية للتوزيع
Phone: +966 1 4871414
المكتب الرئيسي: شارع التخصصي مع تقاطع شارع الأمير سلطان بن عبد العزيز عمارة فيصل السيار
ص.ب: 68761 الرياض: 11537
الجوال: 00966504358213
saudia@hiramagazine.com
abdallahi7@hotmail.com
Phone-Fax: +966 1 2815226

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Phone: +212 22 24 92 00

EGYPT
٣٧ شارع د. عبد الشافي محمد - الحي السابع، مدينة نصر - القاهرة.
هاتف: 201065523089+ - 201119482609+
hiraegypt@gmail.com

LİBYA
دار الرواد، ذات العماد، برج ٤-طرابلس-ليبيا.
هاتف: 00218213350332 - daralrowdooks@gmail.com
هاتف: 00218916125579 - hiralibya@gmail.com

منهجية في مختلف أعمالهم، يقول: "عندما نلمس الجانب الطيب في نفوس الناس، نجد أن هناك خيرًا كثيرًا قد لا تراه العيون أول وهلة!..

لقد جربت ذلك.. جربته مع الكثيرين.. حتى الذين يبدون في أول الأمر أنهم شريرون أو فقراء الشعور..

شيء من العطف على أخطائهم وحماقاتهم، شيء من الود الحقيقي لهم، شيء من العناية غير المتصنعة، باهتماماتهم وهمومهم.. ثم ينكشف لك النبع الخير في نفوسهم، حين يمنحونك حبهم ومودتهم وثقتهم في مقابل القليل الذي أعطيتهم إياه من نفسك متى أعطيتهم إياه في صدق وصفاء وإخلاص. إن الشر ليس عميقًا في النفس الإنسانية إلى الحد الذي نتصوره أحيانًا، إنه في تلك القشرة الصلبة التي يواجهون بها كفاح الحياة للبقاء، فإذا آمنوا تكشفت تلك القشرة الصلبة عن ثمرة حلوة شهية.. هذه الثمرة الحلوة إنما تتكشف لمن يستطيع أن يشعر الناس بالأمن من جانبه، بالثقة في مودته، بالعطف الحقيقي على أفراحهم وآلامهم، وعلى أخطائهم وعلى حماقاتهم كذلك، وشيء من سعة الصدر في أول الأمر كفيل بتحقيق ذلك كله"[٩].

إن منطق الربح والخسارة، وعقلية المساحات المتحصل عليها أو المفقودة (عقلية الكر والفر)، هما الداء الذي يحيل واقع العمران الإنساني إلى ساحة حروب باردة وساخنة، لكن منطق تسويق "رحمة الله"، والوعي بدور المسلم في الحياة، وأنه دور يتلخص في أن يكون تاجر رحمة لا تاجر نقمة، هما الكفيلان بأن يقللا من حجم القبح الذي يهدد البشرية في معاشها ومآلها، وعلاقاتها العمرانية بفعل ضعف القلوب وعلوق الران عليها، ران الحقد والصراع والفرقة، وتغذية المشاعر التي تضعف من إنسانية الإنسان، وتحول كوكبه الأرضي إلى ساحة للدماء بدل البناء. يقول محمد فتح الله كولن موضحًا هذا الشرط النفسي في صياغة إنسان الأمن والأمان والاستقرار: "إذا كان المطلوب هو تحويل هذا البلد إلى جنة وارفة الظلال، فلا ينجح في هذا ولا يستطيعه إلا من أقام هذه الجنة في قلبه أولاً، فمن لم يستطع تخليص قلبه وعالمه الروحي من قبضة المشاعر والأهواء التي تقلل من مستوى الإنسان وتخفض من قيمته، فهو أعجز من أن يقدر على هذا، بل لو قدر له -على فرض مستحيل- أن يمر من جنات الفردوس لكان من المحتمل أن يفسدها ويشوهها ويقلبها إلى سجون"[١٠].

ولا ملجأ مما حذّر منه الأستاذ فتح الله كولن ولا منجى من ذلك، كما أنه لا سبيل إلى ذلك الشرط النفسي المتمثل في تصفية الوجدان وتنقيته وتخليصه من كوادر الحقد والكراهية والأحكام المرسلة، إلا بأن تتحول قاعدة "إبراء الذمة من سلوك النقمة" إلى مقررات دراسية، وبرامج تدريبية، ومعسكرات حياتية، وقيم حاكمة لسلوك الأفراد والجماعات داخل البيئة الإسلامية، عسى أن تقدم تلك البيئة للعالم صورة مغايرة عن الصورة النمطية التي أركست الأمة بجميع طاقاتها ومكوناتها، في مهاوي التخلف والفرقة والاحتراب، وجعلت إنسانها -إلا برحمة من الله وفضله- يمتلك القدرة الخارقة على تحويل الأرض وليس الجنان، إلى أقبح من السجون وأردأ من الطغيان. والله الموفق للفلاح في ما يفوه به اللسان أو يخطه البيان. ■

(*) مستشار بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت.

الهوامش

(١) انظر: "مجلة حراء، عدد:٣٣ (ديسمبر ٢٠١٢)، مقال بعنوان: "نحو تأصيل الفقه الهاروني في مسألة الوحدة".

(٢) انظر تفسير الماتريدي.

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي، ت: د. عبد الله الخالدي، دار الأرقم، ج:٢، ص:٤٦٣.

(٥) انظر الجزء الأخير من: "مفاتيح الغيب"، للفخر الرازي.

(٦) فتح البيان في مقاصد القرآن، للقنوجي صديق حسن خان.

(٧) في ظلال القرآن، لسيد قطب، دار الشروق، ج:٦، ص:٣٨٦١.

(٨) فيض القدير، للمناوي، ضبط وتصحيح: أحمد عبد السلام، دارالكتب العلمية، ط:٢٠١٢، ج:٢، ص:٦١١.

(٩) أفراح الروح، لسيد قطب، ط:٣، ١٩٨٨، ص:١١-١٣.

(١٠) ترانيم روح وأشجان قلب، لمحمد فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٠، ط:٦، ص:١٥٨.

hiramagazine.com

ومنبع ذلك النفور أنه ما دام القرآن يستنكر على الكفار إهمالهم لنفوسهم واشتغالهم، في المقابل، بغيرهم، فإن المسلم أولى بأن يبرئ ذمته من ذلك السلوك، وأحق بأن يهتم بنفسه إصلاحًا وتقويمًا، وإن من مقتضيات صفة "الرحمة" التي تمثل علة إرسال محمد ﷺ إلى العالمين، أن تنعكس على سلوك المسلم المقتدي بهدي النبي الكريم، فيكون هو الآخر من الساعين إلى تسويق رحمة الله ورحمة الرسول في محيطه الاجتماعي، مدركًا بأنها سلسلة كريمة من الرحمات، ومؤمنًا بأنه مدعو إلى أن يكون حلقة تسهم في جمالية تلك السلسلة.

إن المسلم اليوم محتاج إلى أن يطامن قليلاً، من استعلائه الإيماني وطهرانيته ومشاعره العارمة بسبب تدينه واستقامته، كما أنه محتاج إلى أن لا يتعامل مع التزامه وتدينه على أنه اصطفاء تفضيلي تمييزي، بل لعل الصواب أن يتعامل معه على أنه مسؤولية للتنازل عن العديد من الاعتبارات النفسية، والاتصاف بأخلاقية خدمة العباد والإنسانية جمعاء، على تفلتها وابتعادها عن القيم الحاكمة لتدينه والتزامه، أو على تعارضها مع منهجه الفكري ومسلكه المذهبي واختياراته السياسية. ولا يتحقق ذلك إلا بتجديد النظر في مفهوم التدين والالتزام والفضيلة، والإيمان بأن كل إنسان أودع فيه الحق سبحانه واحدة من الفضائل والأخلاقيات الحميدة قَلّت أو كثرت.

يقول الإمام المناوي: "إن لله تعالى مئة خُلُق" (أي وصف) "وسبعة عشر"، وفي رواية "ستة عشر"، وفي أخرى "بضعة عشرة خُلُقًا"، وفي رواية بدل خُلُقًا، "شريعةً"، "مَن أتاه يوم القيامة بخُلُق منها، (أي واحد) دخل الجنة". قال الحكيم: كأنه يريد أن من أتاه بخُلُق واحد منها وُهِب له جميعُ سيئاته وغُفر له سائر ذنوبه. وفي خبر أن الأخلاق في الخزائن، فإذا أراد الله بعبد خيرًا منحه خُلُقًا منها، ألا ترى أن المفرِّط في دينه المضيع لحقوقه يموت وهو صاحب خُلُق من هذه الأخلاق فتنطلق الألسنة بالثناء عليه. فأخلاق الله أخرجها لعباده من باب القدرة وخزنها لهم في الخزائن، وقسّمها بينهم على قدر منازلهم عنده. فمنهم من أعطاه منها واحدة، ومنهم من أعطاه خمسة وعشرًا وأكثر أو أقل. فمن زاد منها ظهر منه حسن معاملة الخلق والخالق على قدر تلك الأخلاق، ومن نقصه منها ظهر عليه بقدره. فهذه أخلاق وأكثرها مما سمي به والذي لم يسم به داخل فيما سمي به، لأن اللين والرزانة من الحلم والرأفة والرحمة من النزاهة، فمنحه الله إياه واحدة من هذه الأخلاق أن يعطيه نور ذلك الاسم فيشرق نوره على قلبه وفي صدره، فيصير لنفسه بذلك الخلق بصيرة فيعتادها ويتخلق بها. فحقيق بمن أكرمه بذلك أن يهب له مساويه ويستره بعفوه ويدخله جنته، وقد عد في بعض الروايات من تلك الأخلاق كظم الغيظ والعفو عند القدرة، والصلة عند القطيعة، والحلم عند السفه، والوقار عند الطيش، ووفاء الحق عند الجحود، والإطعام عند الجوع، والقطيعة عند المنع، والإصلاح عند الإفساد، والتجاوز عن المسيء، والعطف على الظالم، وقبول المعذرة، والإنابة للحق، والتجافي عن دار الغرور، وترك التمادي في الباطل. فإذا أراد الله بعبد خيرًا وفقه لتلك الأخلاق، وإن أراد به شرًّا خلّى بينه وبين أخلاق إبليس التي منها أن يغضب فلا يرضى، ويسمع فيحقد، ويأخذ في شره، ويلعب فيلهو"[٨].

وهذا التوزيع الرباني للأخلاق إنما هو دليل عدله وفضله، كما أنه مؤشر على أصل الفطرة في الإنسانية، على اختلاف مذاهبها وفلسفاتها وسلوكاتها في الحياة.

وهي أخلاق محتاجة إلى خبراء نفسانيين واجتماعيين لاكتشافها ورعايتها وتنميتها، وخاصة في سياق كالحات الغيوم الداكنة المهيمنة بفعل التصنيفات والأحكام والأوصاف القدحية في حق المخالف للذات، عقيدة ومذهبًا وطائفة وحزبًا، وبفعل الحروب الكلامية والدموية الناشبة بين الحين والآخر.

إن دور المسلم الحكيم يتمثل في العمل بجد وصمت، على إزاحة تلك السحب التي تحاكي ظلمات الهوى والحقد والحسد والكراهية التي تفترس القلوب، وقد عبّر عن ذلك سيد قطب تعبيرًا يحتاج من قيادات الفكر والدعوة والإصلاح إلى أن يحولوه إلى قواعد

hiramagazine.com

أمروا بإصلاح أنفسهم"[٥].

ويقول صديق حسن خان: "أي والحال أنهم لم يرسلوا على المسلمين من جهة الله موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم وأعمالهم ويشهدون برشدهم وضلالهم، بل أمروا بإصلاح أنفسهم.. فاشتغالهم بذلك أولى بهم من تتبع عورات غيرهم وتسفيه أحلامهم، وهذا تهكم بهم وإشعار بأن ما اجترؤوا عليه من القول من وظائف الرسل من جهته تعالى"[٦].

ويقول سيد قطب: "والقرآن لا يقف ليجادل عن الذين آمنوا، ولا ليناقش طبيعة الفرية، ولكنه يسخر سخرية عالية من القوم الذين يدسون أنوفهم فيما ليس من شأنهم، ويتطفلون بلا دعوة من أحد في هذا الأمر، وما وكلوا بشأن هؤلاء المؤمنين، وما أقيموا عليهم رقباء، ولا كلفوا وزنهم وتقدير حالهم.. فما لهم هم وهذا الوصف وهذا التقرير"[٧].

إن الآية الكريمة تحدد القيم العمرانية الآتية:

- ليس من اختصاص الناس أن يصنف بعضهم بعضًا.
- لم يوكل الله أحدًا بمهمة تصنيف الناس والحكم عليهم.
- الأولى أن يشتغل كل فرد بإصلاح حاله ومراقبة أعماله.
- العلاقة بين الصالحين والراشدين مع بعضهم البعض ومع غيرهم، هي علاقة تواصل وتعاون وإصلاح وترشيد، وليست علاقة تصنيف وأحكام ومواقف.
- لا تعارض بين القيم العمرانية للآية وبين مفهوم الشهادة على الناس الوارد في قوله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾(البقرة:١٤٣)، إذ الشهادة لا تعني تصنيف الناس والحكم عليهم، وإنما تعني الانخراط الصادق في التواصل معهم والتعاون على تجاوز حالات الابتعاد عن سواء الفطرة التي أمرت بها جميع الرسالات السماوية وألفتها العقول السليمة. إن الشهادة على الناس تستبطن قيمًا نفسية ترتبط بالحلم والمغفرة والسماحة والرحمة، ولا علاقة لها بنفسية الحقد والنقمة والاستعلاء والتصنيفات القاسية وما يترتب عليها من

إن منطق تسويق "رحمة الله" والوعي بدور المسلم في الحياة وأنه دور يتلخص في أن يكون تاجر رحمة لا تاجر نقمة، هما الكفيلان بأن يقللا من حجم القبح الذي يهدد البشرية في معاشها ومآلها، وعلاقاتها العمرانية بفعل ضعف القلوب وعلوق الران عليها، وتغذية المشاعر التي تضعف من إنسانية الإنسان.

سلوكات ومواقف تضاعف من حدة الصراع والإقصاء والاحتراب.

إن هذه القيم العمرانية تغيب في الساحة الاجتماعية اليوم، بل إنها تغيب في بيئة العلماء والباحثين.. وأذكر أني حاضرت في هذه المسألة بين يدي أزيد من ثمانين باحثًا في مرحلة الماستر والدكتوراه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط خلال الموسم الجامعي ٢٠١٣-٢٠١٤، واعترض على تحليلي هذا باحث محترم، ورد عليّ بقوله: "كيف تجرد المسلم من مهمة تصنيف الناس والحكم عليهم، والقرآن مليء بالشواهد الدالة على الحكم على الناس، وسورة البقرة تصنف البشرية إلى مسلم وكافر ومنافق؟".

ولم أجد بدًّا من أن أجيبه بقولي: "صحيح أن القرآن مليء بالحكم على الناس وتصنيفهم، لكن الإشكال الذي يغفل عنه العقل المسلم تحت تأثير استعلائه الإيماني وطهرانيته وارتباك مهمته في الحياة بين النزوع القضائي -نسبة إلى القضاء- والنزوع الهدائي -نسبة إلى الهداية- الإشكال الذي يغفل عنه العقل المسلم هو أن تصنيف الناس والحكم عليهم إنما هو من اختصاص الله ﷻ، المتساوق مع كبريائه وجبروته وعدله، وليس في القرآن دليل واحد على أن الله منح هذا الاختصاص لأحد، أو فوضه لممارسته بين الناس".

بل إن الظلال المعنوية الحافة بقوله تعالى: ﴿وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾، تنشئ نفورًا ذاتيًّا لدى المسلم تجاه تصنيف الآخرين وملاحقتهم بالأحكام والأوصاف السلبية المسيئة إلى مشاعرهم، والمؤذية لهم نفسيًّا واجتماعيًّا.

hiramagazine.com

التمدد السرطاني المتمثل في التنابز بالألقاب والهويات والمرجعيات، والحرص على نسبة الصلاح والطهرانية إلى الذات، وقذف الآخر المخالف في الاتجاه والرؤية والمنهج بأقدح الصفات وأقبح النعوت؟

قاعدة قرآنية: "إبراء الذمة من سلوك النقمة"

ومهما حاولنا أن نقدم أدلة وحججًا على تردي المجتمعات العربية الإسلامية، فإن حالة الأمة اليوم تقدّم أقوى دليل على فقدانها بوصلة الوجهة السديدة في تدبير اجتماعها القائم على التنوع والاختلاف والتعدد الثقافي والعرقي والمذهبي والطائفي، وليس من الوجدانيات في شيء الاعتراف بأنه حال يدمي القلوب، ويدمر أعصاب النخبة التي تسعى إلى التنوير والإصلاح في محيطها الثقافي والاجتماعي، وقد يودي بالبعض إلى حالات من اليأس والإحباط.

لقد شكلت "الأقومية" التي يهدي إليها القرآن الكريم عنصرَ شحذ وتحفيز لاستخلاص القواعد القرآنية الحاكمة للعمران الإنساني، فتوصل البحث، في دراسة سابقة إلى صياغة قاعدة "يثبت للوحدة ما يثبت للتوحيد وجودًا وعدمًا"، وذلك من خلال التأمل في قصة موسى وهارون في قوله تعالى: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾(طه:٩٤)[1].

وفي دراستنا هاته، نسعى إلى أن نقدم صياغة لقاعدة عمرانية جديدة وهي "إبراء الذمة من سلوك النقمة"، ومعناها أن المسلم -بهدي القرآن الأقوم- مطالَب بأن يبرّئ ذمته من أي مشاعر أو سلوكات أو مواقف يشتم منها نقمته على الناس وكراهيته لهم وتصنيفهم لهم لاتجاهات وطوائف ومذهبيات وإيديولوجيات، لأن رسالته في الحياة تقوم وتتقوّم على أساس أنه تاجر رحمة وليس تاجر نقمة، وأنه معني بالقصد الأصلي والتبعي، بتحري طريق التواصل مع مختلف الناس ورحمتهم وتقديم العون لهم وتجاوز أخطائهم ومواقفهم السلبية تجاهه وتجاه تدينه واستقامته.

والراجح أن هذه القاعدة تستمد من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ۞ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۞ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۞ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ۞ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾(المطففين:٢٩-٣٣)، كما أن مجموع القيم القرآنية تشكل الظلال الحافة والبيئة المناسبة لنمو تلك القاعدة.

إن القرآن الكريم يرصد في سياق الآيات السالفة، ظاهرة مرضية تلبست مواقف المكذبين والكافرين بدعوة محمد ﷺ، ظاهرة استحقت من القرآن أن ينسبها إلى "الإجرام"، وأن يعرض أصحابها إلى سياط التوبيخ والتعنيف والاستهزاء، ألا وهي ظاهرة تتبع الآخرين وترصدهم والسعي إلى تصنيفهم وملاحقتهم بالأوصاف السلبية والنعوت القدحية والأحكام الجاهزة التي توغر الصدور وتؤلم النفوس وتزرع الأحقاد والضغائن في القلوب، وتهيئ الأجواء للشنآن والصراع والتنابز.

لقد ظن الكفار بأنهم أحسنوا صنعًا حين وصفوا المؤمنين بأنهم ضالون، ولم يشتغل القرآن بالاستدلال المنطقي البرهاني على بطلان دعواهم، بل أبان لهم أصل الداء وعلة الخلل، بأن نفى عنهم أن يكون الله ﷻ قد منحهم سلطة الحكم على الناس وتتبع بواطنهم وترصد سلوكاتهم، أو أعطاهم تفويضًا بتوزيع الألقاب والأوصاف والأحكام على العباد، وهذا واضح في الجملة الاعتراضية ﴿وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾، وهو المعنى الذي وقف عليه العديد من المفسرين.

يقول الماتريدي: "أي لم يرسلوا لحفظ أعمال المسلمين، فيكون في ذكر هذا تسفيه أحلامهم، وهو أنهم تركوا النظر في أحوال أنفسهم، وجعلوا يعدون على المسلمين عيوبهم -كأنهم- أرسلوا عليهم حفاظًا، وما أرسلوا"[2]، ويقول القرطبي: "﴿وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ لأعمالهم، موكلين بأحوالهم، رقباء عليهم"[3]، ويقول ابن جزي: "ما أرسل الكفار حافظين على المؤمنين، يحفظون أعمالهم ويشهدون برشدهم أو ضلالهم وكأنه قال كلامهم بالمؤمنين فضول منهم"[4].

وإلى هذا المعنى ذهب الفخر الرازي في قوله: "يعني أن الله تعالى لم يبعث هؤلاء الكفار رقباء على المؤمنين يحفظون عليهم أحوالهم ويتفقدون ما يصنعونه من حق أو باطل فيعيبون عليهم ما يعتقدونه ضلالاً، بل إنما

hiramagazine.com

د. محمد إقبال عروي*

من قواعد الهدي القرآني في العمران الإنساني

إبراء الذمة من سلوك النقمة

غيب التناول الفردي للأخلاق الإسلامية طابعها المجتمعي، فبدت أخلاقًا فردية يتصف بها المرء امتثالاً لأوامر الله واجتنابًا لنواهيه، وتلمسًا لطهرانية ذاتية تتعالى عن مصائد النفس ومكائد الشيطان، فضمر البعد المجتمعي في منهجية تمثل القيم والأخلاق الإسلامية، وانتهت الأمة، في العديد من علاقات أفرادها الأسرية والمجتمعية وفي حياتها السياسية والحزبية والمذهبية، إلى حصاد مُرٍّ من الحسد والكراهية والغبن والأحكام الجائرة وسوء الظن والغيبة والنميمة وتصيد الأخطاء والبغض الدفين والمعلن، مع أن قرآنها يهدي للتي هي أقوم في الأخلاق والقيم، وينهى عن شرها وسيئها.

ومما يؤسف له، أن هذه الظاهرة لم تحظ بالعناية اللازمة، ولم تنل نصيبها من البحث والدراسة النظرية والميدانية، ولم يجب على الأسئلة الآتية جوابًا علميًّا: كيف انحصرت القيم والأخلاقيات التي يحث عليها القرآن الكريم في قالب ذاتي ضيق، فلم تؤت ثمارها المجتمعية تعايشًا وتآلفًا وتوافقًا وتسامحًا؟ وكيف أمعن الأفراد والجماعات -في الغالب الأعم- في سلوك الحسد والبغض والتدابر والاتهام، ولم تسلم البيئات المتدينة -إلا قليلاً- من فيروسات هذه الأدواء القاتلة؟ وما هي الأسباب التي ساعدت على هذا

قال تعالى حاكيًا عن نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾(الأنبياء:٥٦).

ولتثبيت صحة هذا المنهاج -منهاج التيقن بالملاحظة والفرضية والتجربة- ولتفصيل مقاصده، جاءنا ربنا الكريم في سياق الآيات بقصة أخرى، جعلها سبحانه معطوفة على تلك التي حاج فيها الملك إبراهيم والتي بُهت فيها الملك بحجة "اليقينية الكونية" التي أقامها عليه إبراهيم عليه السلام فقال عز من قائل: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَـذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(البقرة:٢٥٩).

هذه القصة كما يظهر من مضمونها، جاءت لإظهار محدودية علم الإنسان ونزوعه إلى الخطأ. فحتى ولو كان هذا السؤال: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَـذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ قد صدر عن أحد أنبياء بني إسرائيل كما جاء في بعض التفاسير، إلا أنه جاء من قبيل الافتراض بعد ملاحظة الخراب المهول الذي حل بالقرية. فهو إذن من باب الاستبعاد الظني، لأن إعادة البلدة إلى ما كانت عليه من العمارة بعد فجائية الخراب، يتطلب من الوقت ما لا يمكن تصوره. ولإثبات خطأ الرجل في تقديره لقدرة الله، أجرى الله له اختبارًا على نظير البعد الذي أخطأ منه التقدير وهو الزمن؛ فأماته مائة عام، ثم سأله بعد أن بعثه ليجعله يكتشف بالمعاينة التجريبية التي أجراها الله على طعامه وشرابه وحماره أن ظنه الذي استبعد به إحياء الله القرية الخاوية كان خاطئًا تمامًا كما هو خاطئ الآن في تقديره للمدة التي لبثها ميتًا وإن لم يكن الرجل كاذبًا؛ ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ﴾.

وقال القرطبي -رحمه الله- في تفسير معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ﴾؛ "أي لما اتضح له عيانًا، قال أعلم أن هذا الضرب، من العلم الذي لم أكن أعلمه على معاينة فتيقن ذلك بالمشاهدة". وقال ابن كثير -رحمه الله- أن آخرين قرأوا ﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾ على أنه أمر له بالعلم كما قال لإبراهيم عليه السلام: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وهكذا فقصة هذا الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه، جاءت في سياق الآيات ممهدة لاستيعاب المقصد من طلب إبراهيم عليه السلام رؤية كيفية إحياء الله الموتى. فقد ذكر ابن كثير -رحمه الله- في معرض تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾؛ "أن إبراهيم بعد ما قال لنمرود ربي الذي يحيي ويميت، أراد عليه السلام أن يترقى بذلك من علم اليقين إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة". فأراد بسؤاله ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أن يرى الكيفية، أي الطريقة التي تمكنه معاينةُ تفاصيلها من طمأنة نفسه بعدما لاحظ قدرة الله على الإحياء وافترض افتراضات لذلك. فكان أن هيأ الله تعالى له ذلك المختبر الطبيعي الذي ستكون فيه التجربة العلمية هذه المرة على نطاق البعد المكاني بصرّ الطير وتوزيع أجزائهن على قمم الجبال المتباعدة ثم دعوتهن، حتى يوصله عن طريق المعاينة التجريبية بالبرهان إلى الإحاطة بحقيقة الإحياء حسًّا ومضمونًا.

من خلال هذه الاستشهادات يتضح أن القرآن يقر المنهاج التجريبي كأساس لبلوغ اليقين. فهو عين المنهاج ونبع الاستقامة العلمية؛ إذ يستوعب بتوجيهاته كل وسائل الملاحظة والفرضية والاختبار، بل ويهيمن عليها بالتوثيق الزماني والمكاني لموضوع البحث، حتى يفضي من خلال حقائق الكون النسبية إلى الحقيقة المطلقة التي ليست بعدها إلا الضلال.

وهذا ما ينبغي أن يستوعبه كل متطلع لبناء فكر علمي، وكل باحث في حقل العلوم التجريبية، لأن القرآن آيات تهدي إلى الحق، والكون بصائر تعصم الناس من الخطأ، فمن لم يستدل بها على الحق بمنهاج علمي حكيم حُجبت عنه كل الحقائق. ■

(*) كلية العلوم، جامعة ابن طفيل / المغرب.

hiramagazine.com

والحساب) والمكان (الأرض التي هي البساط الذي عليه يقع الظل). وهذا يعني أن المعالجة لا يصير لها مدلول إلا من خلال هذه الوحدة الزمكانية التي تقوم عليها نسبية كل من الزمان والمكان بعضهما لبعض.

فكان التوجيه الرباني في هذه الآية منهاجًا تجريبيًّا شاملاً سطّر الحق سبحانه فيه مجال البحث وفق محورين متلازمين: محور أفقي وهو المكان الذي تدل فيه عبارة ﴿فِي الأَرْضِ﴾ على شمولية المجال لكل النُطُق التي ترتفع أو تنخفض عن مستوى سطح الأرض، ومحور عمودي وهو الزمان الذي تدل فيه عبارتا بدْء الخلق ونشأته الآخرة على فعل الزمان كأداة يغير الله بها خصائص الخلق ويرتب بها أطواره وفق سنة التطور التي خلقه عليها. وعلى سكة هاذين المحورين تُنزّل قاطرة البحث لتسير بخطى حثيثة تطلب بوسائل البرهنة والاستدلال الحقائق العلمية المفضية إلى الحقيقة المطلقة الكامنة خلف كل هذه الحقائق النسبية، وهي اليقين بأن ﴿اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كما جاء في آخر الآية.

وهذا ما تستبطنه الإشارات الكونية في القرآن الكريم، التي غالبًا ما تأتي الآيات بها في سياقات مهيأة للتعامل مع المنهاج التجريبي بالدعوة إلى النظر، أي الملاحظة وافتراض التساؤلات لإخضاع الظاهرة للتجربة والاختبار. والغاية من كل ذلك تحريك عقل الإنسان لسبر أغوار الكون والكشف عن أسراره من أجل تقويم فكره على درب الاستقامة الكونية التي هو جزء منها.

ونستشهد على هذا النهج بدعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام، إذ لما أراد الله أن يُقرّ في قلبه اليقين سلك به سبحانه هذا المنهاج؛ منهاجَ الملاحظة والفرضية والاختبار فقال عز من قائل: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾(الأنعام:٧٥)، وذلك بأن جَعَله يجول بخاطره بين أجرام الكون ملاحظًا عظمة مكوناته ودقة نظمها. فوضع عليه السلام فرضية تأليه الكوكب، ثم بعده القمر، ثم الشمس. فلما أخضعها للاختبار وجدها كلها تأفل، فخلص بعقله من خلال ذلك إلى حقائق نسبية تفيد عدم استحقاق هذه المكونات التأليه،

يجب أن تكون الوحدة التكاملية بين القرآن والكون، المدخل لكل قراءة علمية تهدف إلى الإحاطة بحقائق الأشياء وفق منهاج القرآن الذي يرسم للعقل البشري الطريق الواضح الذي يجب أن يسلكه في بناء الفكر العلمي والإدراك المنطقي.

حراء

ومن خلالها إلى الحقيقة المطلقة التي جاءت مقررة في قوله تعالى على لسان نبيه إبراهيم: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(الأنعام:٧٩). وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن إبراهيم عليه السلام كان منطلقه إيمانيًّا، لأنه ما استدل بالكوكب الذي رآه، ولا بالقمر، ولا بالشمس على الله، وإنما استدل بالله عليها بدليل قوله عليه السلام كما حكى عليه ربه عز وجل: ﴿لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾(الأنعام:٧٦). فما جعل عليه السلام هذه الظواهر الكونية إلا حقائق نسبية أقام بها الحجة على قومه، حتى يوصلهم -عن طريق العقل- إلى الحقيقة المطلقة التي جاءت مقررة في خطابه كما رأينا.

وبذلك يتضح أن عالم الشهادة الذي نعيشه بحواسنا، هو مادة خصبة للعقل من أجل الخوض في عالم الغيب النسبي. فإذا أحسن الإنسان التعامل معه، ارتقى بالاطمئنان القلبي في عالم الغيب المطلق فكان من الموقنين، وهو ما نستشفه من حقيقة طلب سيدنا إبراهيم عليه السلام من ربه رؤية كيفية إحياء الموتى، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(البقرة:٢٦٠).

وقد يختلف الناس حول مغزى هذا السؤال كما قال القرطبي رحمه الله: "اختلف الناس في هذا السؤال، هل صدر من إبراهيم عن شك أم لا؟ فقال الجمهور: لم يكن إبراهيم عليه السلام شاكًّا في إحياء الله الموتى قط، وإنما طلب المعاينة"، وذلك لأنه لو لم يؤت العلم من ربه بمنهاج المشاهدة والمعاينة، لما تمكّن من تثبيت اليقين في مواجهة التحديات الفكرية والعقدية لذلك الزمان.

hiramagazine.com

وعليه فلما كان الله في كل شيء -يراه الإنسان أو لا يراه- وكان هو الكل متجليًا نوره في كل مكونات الكون وجّه سبحانه المتعرفين عليه إلى النظر والتفكر في هذه المكونات العاكسة لنور ضيائه. لعل هذا الإنسان المكرم بالعقل إذا نفذ إليه ذلك الشعاع الساطع من نور هذه المكونات، ارتقى من خلال تلك المدارك في درجات الكمال الموصلة إلى الانسجام مع كمال الكون. فجاء الخطاب القرآني من أجل ذلك موجهًا الإنسان إلى الجمع بين القراءتين؛ قراءةِ المسطور وقراءةِ المنظور، على اعتبار أن الكتاب المسطور يقدم للإنسان قواعد العلاقة التفاعلية بينه وبين الكون، وأن الكون الذي هو الكتاب المنظور يشكل المرجع التجريبي لوضع النماذج التفسيرية لهذه العلاقة في ظل وحدة بنائية متكاملة تتكامل فيها عناصر الواقع والعقل والوحي.

فإذا انطلقت معرفة الإنسان العلمية من وحدة هذه العناصر الثلاثة تكامل في يقينه عالم الشهادة مع عالم الغيب، فترقى بذلك في مراتب الكمال التي من أجلها خلق. أما إذا انطلقت معرفته من قراءة تجزيئية لا تعتمد النظرة التكاملية الجامعة بين المسطور والمنظور، فإن الإنسان يبقى بعيدًا عن هذا المنال ولا يمكن له أن يصل إلى كمال المعنى المراد من الإشارات الكونية بقدر ما يقع في توظيف اللفظ القرآني أو الظاهرة الكونية فيما شاء من تأويل. فالقرآن والكون بوحدتهما التكاملية بين الواقع والعقل والوحي، يذكّر كل منهما القارئ بعلاقة التلازم القائمة مع الآخر، إذ لا يمكن فهم أحدهما إلا من خلال حسن قراءة الآخر. فكان بناء الكتاب المسطور متناظرًا مع بناء الكون المنظور في العوالم الثلاثة؛ عالمِ الشهادة وهو الواقع المشهود مما نلمس ونحس، وعالم الغيب النسبي وهو المغيب المدرك بقوة العقل، وعالم الغيب المطلق وهو الوحي الذي نزل بعلم الله وحده وليس لنا إلا أن نؤمن به.

الوحدة التكاملية بين القرآن والكون

ومن هنا يجب أن تكون الوحدة التكاملية بين القرآن والكون، المدخل لكل قراءة علمية تهدف إلى الإحاطة بحقائق الأشياء وفق منهاج القرآن الذي يرسم للعقل البشري الطريق الواضح الذي يجب أن يسلكه في بناء الفكر العلمي والإدراك المنطقي. فالقرآن لما دعا الإنسان إلى النظر في الكون: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(يونس:١٠١)؛ اختزل في ذلك النظر -كما رأينا- كل المنهاج التجريبي الذي وصل إليه العقل البشري من ملاحظة وفرضية وتجربة. ولا أدل على ذلك مما جاءت به الآية الأخرى في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ۞ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(العنكبوت:١٩) التي تستوعبت كل المنهاج التجريبي بين كلمتي "انظروا" و"كيف" اللتين تجمعان خصائص الملاحظة والفرضية والتجربة، بل وتتجاوزها إلى حد التوثيق الزماني والمكاني لموضوع البحث بإقرار السير في الأرض كعنصر دال على البُعد المكاني، والفارق بين بدء الخلق ونشأته الآخرة كعنصر دال على البعد الزماني. وذلك لإضفاء صفة الدراسة المقارناتية على ظواهر الخلق بالتنقل بين أرجاء الأرض، ثم الربط الزمني بين مراحلها على اعتبار عامل الزمن مؤثرًا في تطورها.

فالآية بإقرارها لعلاقة التلازم القائمة بين بُعدَي المكان والزمان في موضوع النظر هذا، إنما تكون أقرتْ بنسبية كل واحد منهما للآخر، إذ لا يصير لأحدهما مدلول إلا إذا أخذ من مفهوم وحدته مع الآخر. وهو ما كشفت عنه حديثًا دراسات الفيزيائي الألماني "ألبيرت أينشتاين" في نظريته للنسبية التي أصبحت اليوم أساسًا لكل الدراسات العلمية الدقيقة، حيث قال في كتابه مبادئ النسبية: "إن المكان في حد ذاته والزمان في حد ذاته، هما متغيران محكوم على كل منهما بالاضمحلال كما يضمحل الظل. ولا يمكن لأحدهما أن يُبقيَ حقيقته إلا من خلال توحده مع الآخر". ونحن نعرف أن الظل ليس شيئًا ماديًا، بل مجرد أثر في المكان لجسم مادي متغير مع الزمان. فإذا غاب أيٌّ من الزمان أو المكان، زال مفهوم الظل الذي تبقى نسبيته من نسبية بعدي الزمان (الشمس والقمر اللذين هما مصدر الضوء المحدث للظل، واللذين بهما نعلم عدد السنين

hiramagazine.com

د. عبد الإله بن مصباح*

أين تكمن حكمة المنهاج العلمي في

القرآن الكريم

١

الظواهر الكونية هي يقينيات علمية أي تثبيتات إيمانية للقلب يخاطب الله تعالى بها العقل من خلال أمثال يضربها للإنسان في نفسه أو في آفاق الظواهر الطبيعية المحيطة به، لعله بكل يقينية تستقر في قلبه يترقى في مراتب الخشية من الله كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(فاطر:٢٨). والعلماء كما قال ابن عباس ﷺ في تفسيره لهذه الآية: "هم الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير". فهؤلاء كما يتضح من سياق الوصف القرآني السابق لهذه الآية، هم الذين ينطلقون من مراجع الكون المنظور ليثبّتوا في يقينهم آيات الكتاب المسطور. حتى إذا تكونت الصورة في عقل الناظر، نفذت أنوارها إلى القلب فحصل هنالك اليقين بأن الله على كل شيء قدير.

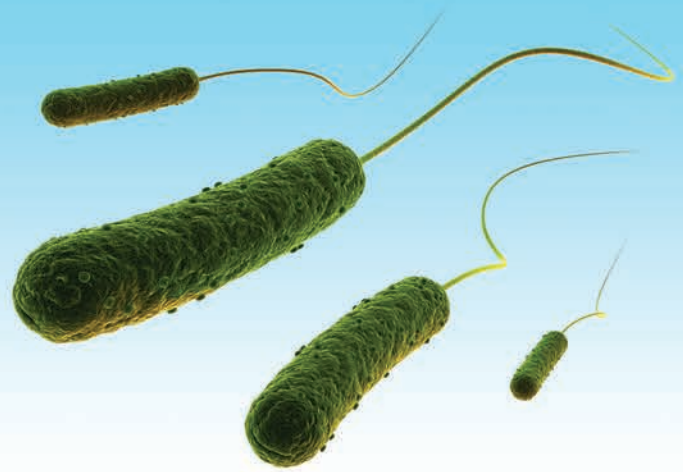

رفع كفاءة جهاز المناعة

تلاحم البكتيريا المعوية النافعة مع الأنسجة الليمفاوية بجدار الأمعاء، يحفز هذه الأنسجة على العمل ويبقيها على أهبة الاستعداد لمقاومة الجراثيم المرضية، وتبدأ هذه العملية من البدايات الأولى لتكوين البكتيريا المعوية في حديثي الولادة، ومن طريف الأمر أن هذه البكتيريا تقوم بدور "ملطف" يجعل من رد فعل الجهاز المناعي على الاقتحام الجرثومي المرضي، ردًّا وسطيًّا بعيدًا عن أن يحدث فعلاً عينفًا أو إصابة شديدة بأنسجة الجسم أثناء المواجهة.

ضبط الوزن

قد يؤدي حدوث اختلال في التكوين البكتيري الداخلي إلى حدوث سمنة أو زيادة في الوزن حين تتكاثر بكتيريا "فيرمي كيوتيس" على حساب أنواع الـ "باكتيرويدس"، وعلى العكس إن تصحيح هذا الخلل يكون في العادة مصحوبًا بالعودة إلى الوزن الطبيعي.

حارس البوابة عصيات "دودرلاين" المهبلية

اكتشف العالم الألماني "دودر لاين" ١٨٩٢ نوعًا من الجراثيم العصوية بالمهبل -التي سميت فيما بعد باسمه- يقوم بتحويل النشا الحيواني (الجلايكوجين) الموجود بخلايا جدار المهبل إلى سكر اللبن، مما أعطى هذه البكتيريا الاسم التالي لها "العصيات اللبنية". ويترتب على هذا التفاعل، تحول الوسط المهبلي إلى وسط شديد الحموضة غير قابل لنمو الجراثيم الممرضة، مع إطلاق فوق أكسيد الهيدروجين بما له أيضًا من خصائص مضادة لهذه الجراثيم المرضية. ومن عجب أن تركيز هذا التفاعل الكيميائي الدفاعي وتكاثر عدد العصيات اللبنية، يكونان في أدنى مستوياتهما أثناء فترة الحيض، مما يجعل المهبل أنذاك أكثر ما يكون ضعفًا أمام أي اجتياح جرثومي خارجي، ويكونان في أعلى مستوياتهما أثناء قمة النشاط الهرموني الأنثوي وفترة الإباضة منتصف الدورة الشهرية، في آلية عجيبة تحفظ للجهاز الإنجابي أعلى درجات التعقيم والحماية أثناء فترة الخصوبة والاستعداد للحمل.

الإفادة العلاجية والصيدلية الحيوية

أمكن للإنسان استخدام هذه البكتيريا النافعة فيما يسمى بالمحفزات الحيوية (Probiotics) وخاصة "العصيات اللبنية"، التي تستخدم كعلاج حيوي لإعادة التوازن إلى بكتيريا الأمعاء أو إلى المهبل في حالات عديدة من الالتهابات المعوية والمهبلية. ■

(*) أستاذ أمراض النساء والتوليد، كلية الطب، جامعة سوهاج / مصر.

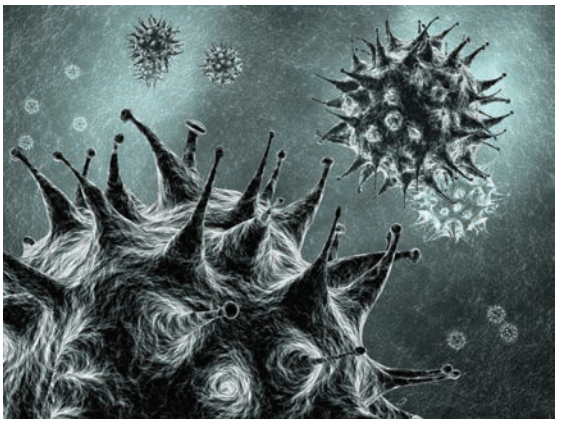

هـذا الرقـم تقريبًـا على أسـطح جلودنا بالإضافـة إلى ما يقطـن منهـا بالعيـن والفم والأنف والمهبـل.. وقد أمكن التعـرف علـى العديـد مـن أنواعهـا بواسـطة التقنيـات الوراثية الحديثة المعتمدة على الحمض النووي (DNA)، لكـن الكثيـر مـن هـذه الأنـواع لـم يمكـن بعد اسـتزراعه فـي المعمـل لدراسـة خصائصـه علـى نحـو بيّـن، ولا زال الكثيـر مـن الغمـوض يكتنـف سـلوكها وفوائدهـا.

في أمعائنا

البكتيريا مصنـع هائل وعضو طي النسيان. بينما يحتوي الجسـد البشـري علـى نحـو ١٠ تريليـون خليـة بشـرية، فـإن أمعاءنـا تحـوي مـن البكتيريـا المتعايشـة نحـو ١٠ أمثـال هـذا العـدد (١٠١٤) موزعـة علـى أكثـر مـن ٥٠٠ نـوع. ويمثـل النشـاط التحويلي الغذائـي (الأيضي) لهذه الجمهريـة البكتيريـة فعـل مصنـع هائـل أو مـا يعـادل "عضـوًا منسـيًّا" مـن الجسـم. وتشـكل أجنـاس البكتيريا المسـماة بـ"الباكتيرويـد" أكبـر نسـبة مـن أنـواع البكتيريـا المعوية، إضافة إلى "الإيشيريشـيا وبعض الكوليستيريديا والعصيات اللبنية" وغيرها.

الأُمّ: الينبوع الأول

يخـرج الوليـد من بطن أمـه معقم الأمعـاء، خاليًا من البكتيريا التي سرعان ما يكتسبها من جسد الأم، ويكون هـذا الاكتسـاب أكثر سـرعة واسـتقرارًا في حـال الولادة الطبيعيـة عنـه فـي حـال الـولادة بالجراحـة القيصريـة، حيـث يكـون الوليد في الحالة الأولى في تعرض مباشـر للبكتيريا المتواجدة طبيعيًّا في مهبل الأم، وعقب الولادة توالـي الأم هـذا "الدعـم البكتيـري " لطفلهـا عـن طريـق النقـل المباشـر أثنـاء الإرضـاع والاحتضـان والتواصـل، وتشـكل أنـواع السـبحيات الكريـة والإيشريشـيا الـرواد الأوائل المستوطنة للوليد، ويقوم هؤلاء الرواد بعمليات اختـزال كيميائيـة تمهد المكان لاسـتيطان الأجيال التالية مـن الأنـواع اللاّهوائيـة كـ"البيفيدوباكتيريـا".. ومـع تقدم المولـود فـي العمر وتوالي اعتمـاده على أطعمة خارجية غير لبن الأم، تتحول البكتيريا مستوطنة الأمعاء تدريجيًّا إلى النمط البكتيري لأمعاء الإنسان البالـغ.

المعمل الكيميائي

يعتبـر المعمـل البكيتـري الداخلـي ذا أهميـة كبـرى فـي الإفـادة من مـواد الطعام الكربوهيدراتيـة، حيث إن كثيرًا مـن هـذه البكتيريا يفـرز الخمائر (الإنزيمات) المسـاعدة على تحليل السـكريات العديدة في ما يسـمى بـ"التخمير السـكري"، والـذي يؤدي إلى تكويـن الأحماض الدهنية قصيرة السلسـلة كحمـض "الخليك" الـلاّزم للعضلات، و"البروبيونيك" المساعد لعمل الكبد في إطلاق مركبات الطاقـة ثلاثيـة الفوسـفور، و"البيوتريـك" الـذي يسـاعد فـي إمـداد خلايـا الأمعـاء ذاتهـا بالطاقـة، كذلك تسـاعد هـذه الأحمـاض علـى نمـو الخلايـا الطلائية والأنسـجة الليمفاويـة للأمعـاء. ومـن ناحيـة أخـرى فـإن للبكتيريـا المعويـة دورًا بالـغ الأهميـة فـي امتصـاص فيتامين "ك" مـن جـدار الأمعـاء والـذي يمثـل أهمية خاصـة للآليات تخثـر الـدم ومنـع النـزف. وأخيـرًا وليـس آخرًا مـا لهذه الميكروبـات الحميـدة مـن الأثـر "المانـع الحائـل" فـي إحبـاط نمو الأنـواع الممرضة مـن الميكروبات الأخرى في الأمعاء مثل أنواع الخمائر وجراثيم الكوليستيريديا، وذلـك لمـا تتمتـع به البكتيريا المعويـة النافعة من تكيف أكثـر مـع موطنها مـن حيث القدرة على التشـبث بجدار الأمعاء، والإفادة من الغذاء المحيط في تلك البيئة (أهل مكة أدرى بشعابها)، وهذا الأثر يتضح جليًّا عند إحباط هـذه الميكروبـات الحميـدة بواسـطة تنـاول المضـادات الحيويـة، ممـا يـؤدي إلـى إزديـاد تكاثـر ونمـو الجراثيـم الممرضـة دون كابـح، مسـببة الأمـراض المعوية بما فيها الإسهال والتسمم.

hiramagazine.com

د. أحمد عبد الحفيظ*

صديق في داخلي

البكتيريا.. تلك الكائنات المجهرية الدقيقة التي تعرّف عليها الإنسان حديثًا كمسبب للأمراض وذات السمعة السيئة في هذا المجال. ربما لم يخطر على بال الكثير منّا أنها ليست جميعًا بهذه العداوة وهذا الإضرار، وأن بعضًا منها ربما يكون ذا نفع جليل في الوقاية من عديد من الأمراض، بل وفي رفع مناعة أجسادنا بصفة عامة، حتى إنه ليشكل صديقًا وحليفًا في معركة الإنسان والمرض.

في داخل أجسادنا

يمكن تعداد أكثر من ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ نوع من البكتيريا المتعايشة في أمعائنا، ومثل

النقدي في هذا النوع من الكتابات والبحوث الخاصة بهذه المرحلة من تاريخ الصيدلة في الأندلس... من ذلك ما نجده عند ابن البيطار الذي قام بنقد كتاب "منهاج البيان فيما يستعمله الإنسان"، وهو الكتاب الذي جمع فيه ابن جزلة (ت ٤٩٣هـ) الأدوية والأغذية والأشربة، فقام ابن البيطار ونبه على أخطائه وما غلط فيه من أسماء الأدوية، وذلك في كتابه الذي رتبه على حروف المعجم، وجعله بعنوان "الإبانة والإعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام". وإذا كان ابن البيطار قد استطاع أن يرسي قواعد المنهج النقدي، فإنه أيضًا قد وضع أسس المنهج العلمي، وحددها في أهداف ستة هي: استيعاب القول في الأدوية المفردة والأغذية المستعملة على الدوام والاستمرار؛ والمقصود بذلك جمع مادته العلمية الطبية الخاصة بلغاتها المختلفة.. والأمانة العلمية عند النقل، والتحقق من صحة الأدوية، والاعتماد على الملاحظة والمشاهدة، والاختبار وإجراء التجارب اللازمة للأدوية التي استعان بها في علاجه للأمراض، ووصف الأعشاب والنباتات.. كما أنه قام بتحضير الأدوية واستخدم النسبة والكمية في إعداد الكميات اللازمة للعلاج، وحذر من الإفراط في أخذ العلاج أو الابتعاد عن أخذ الكمية المحددة.

ومن خلال المقارنة بين طريقة ابن البيطار والطريقة التي يسير عليها العلماء المحدثون، نجد أنه توجد جوانب مشتركة بين ابن البيطار والعلماء الذين اعتمدوا على المنهج التجريبي الذي يقوم على الملاحظة.. لقد استخدم ابن البيطار "التجربة" وكان يطلق عليها اسم "الاختبار".. فقد قام بممارستها عند اختباره للأعشاب والنباتات، لكي يستخرج منها العقاقير اللازمة لعلاج الأمراض. وكانت التجربة عنده مرتبطة بالفرض الذي يُعد أبرز صور الإبداع العلمي.

ولقد أدرك ابن البيطار أهمية الفرض ودوره الهام واعتبره عنصرًا هامًّا من عناصر المنهج التجريبي، حيث إن له دورًا حيويًّا في مجال البحث العلمي ومعرفة تركيب الأدوية والعقاقير، وكيفية استخلاصها من النباتات والأعشاب، والوصول إلى التحقق منها وكيفية صحتها وأهميتها لعلاج الأمراض. بل إن ابن البيطار يبين لنا منافع الأدوية، وأهميتها لعلاج الأمراض، ويحدد القدر المناسب منها ويحذر من الإفراط في استخدامها، لأنه قد يؤدي إلى الضرر بالإنسان، كما يبحث عن البديل منها للدواء الأصلي إذا كان غير متوفر، فليس من الضرر من الاستعانة بغيره إذا لم يتيسرالحصول عليه.

ولم يقتصر ابن البيطار على الاستعانة بالنباتات والأعشاب ذات الأصول النباتية، بل هو قد استعان بذات الأصول الحيوانية، والتي يتخذ منها العقاقير، مثل حديثه عن "ابن عرس"، وأصناف من الطير، وبعض الأرانب البرية، وبعض الحيوانات البحرية.. وهو في كل ذلك يعرض لتشريح بعضها ويعتمد على الوصف والملاحظة الدقيقة، إضافة إلى إجراء التجارب عليها واستخلاص أدوية من بعضها. كما تناول بالوصف والشرح عددًا من الأدوية والعقاقير ذات الأصول المعدنية، والأحجار التي يمكن الاستفادة منها في استخراج مواد فعالة علاجيًّا، فيذكر الآبار وهو الرصاص ومعادن وأحجار أخرى.

ولم تقتصر جهود ابن البيطار على ذكر مئات الأدوية والعقاقير، وإضافة عشرات من الأصناف ذات الأصول النباتية والحيوانية والمعدنية التي لم تكن معروفة من قبل، ويساهم في تأسيس الصيدلة العربية على أسس علمية وتجريبية، بل هو قد ساهم في استقرار المصطلح الطبي العربي الإسلامي، وأثرى معجمه الذي أصبح من بعده مصدرًا ثريًّا لكل أطباء أوربا والغرب.

وهكذا كانت لبحوث ابن البيطار في عالم الأعشاب والنباتات الطبية، وكذلك تجاربه الدوائية، واعتماده على الملاحظات الدقيقة والتجارب العميقة في هذا العلم التجريبي، أثره الذي لا ينكر في تقدم هذا العلم وتطوره على يد العرب والمسلمين، خاصة وأن المسلمين تمكنوا من صياغة المصطلحات الطبية المناسبة وقاموا بتعريب كثير منها وتطوير مشتقاتها اللغوية، مما ساعد على تكوين المعجم الطبي العربي الذي أصبح مصدرًا علميًا دقيقًا لأطباء العالم، ساعدهم على تطوير علم الصيدلة فيما بعد. ■

(*) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

كما تأثر ابن البيطار بالغافقي النباتي المشهور الذي يعد من أعظم الصيدليين العرب أصالة، حيث أخذ منه أجزاء غير قليلة من كتابه في الأدوية المفردة. كما لا يمكن إغفال تأثر ابن البيطار بكثير من العلماء العرب والمسلمين والصيادلة والعشابين، والذين تظهر أسماؤهم في مؤلفاته مثل الزهاوي، وابن جزلة، وأبو بكر الرازي، وابن سمحون، وثابت بن قرة، وماسرجويه، وابن العوام، الذين كتبوا تراثًا ضخمًا... تمكن ابن البيطار من الاستفادة منه وتوظيفه في تأسيس علم الصيدلة وتأصيله عند العرب والمسلمين.

تصنيف الأمراض والأدوية والعلاجات

ومن مظاهر التقدم العلمي الطبي عند العرب والمسلمين تصنيفهم للأمراض، وذلك للتسهيل عليهم في علاجها، فكانوا يعرضون للأمراض وأسبابها وأعراضها وعلاماتها وطرق علاجها. وقد ظهرت لدى أطباء العرب والمسلمين في هذه المرحلة التي عاش فيها ابن البيطار ظاهرة لم يلتفت إليها من قبل دارسو تاريخ العلوم، ألا وهي "الجداول الطبية". وقد ظهرت هذه الطريقة المنهجية عند ابن التلميذ (ت ٥٦٠هـ) في مخطوطه "المغني في الطب" حيث نرى عرضًا منهجيًّا واضحًا للأمراض، فهو يعرض في أول الجدول للمرض، وفي منتصفه للسبب الذي أدى إلى هذا المرض، وفي الأخير للأعراض المصاحبة له... وهذا واضح في كثير من الأمراض، وخاصة الأمراض الحادثة في الجفن ومداواتها، والأمراض العارضة في ملتحمة العين ومداواتها، وفي أمراض ثقب الحدقة ومداواتها وفي الشبكية والغشاء المستبطن للأضلاع والعضل المحركة للصدر وعلل الحجاب.

وقد ازداد النزوع نحو تصنيف الأمراض عن طريق الجداول، حتى إن كتاب ابن البيطار "قانون الزمان في تقويم الأبدان" هو عبارة عن جداول طبية فقط، ويبدو ابن البيطار في هذا الكتاب في صورة "الطبيب" وليس "العشاب"، ذلك اللقب الذي اشتهر به.

ومثلما اهتم الأطباء بتصنيف الأمراض، اهتموا أيضًا بوضع مصنفات للأدوية والعلاجات وعقدوا فصولاً مستقلة في كتاباتهم عن تصنيف الأدوية. فنرى هذا واضحًا في كتاب "الدرة البهية" لابن البيطار، حيث يشير إلى الأدوية والأغذية وأهميتها لبدن الإنسان، ويوضح اختلاف الدواء باختلاف المرضى والمرض.

ابن البيطار بين الأسلوب العلمي والنقد المنهجي

لقد ألف ابن البيطار أوسع كتبه، في موضوع علم النبات وأعمقه، بل أهم كتاب ألفه هو "الجامع في الأدوية المفردة". وقد أوضح ابن البيطار في كتابه "الجامع في الأدوية المفردة" الأهداف التي اختارها فيه، ومنها يتجلى أسلوبه في البحث، وأمانته العلمية عند النقل، واستناده على التجربة كمعيار لصحة الأحكام.

وقد رتب ابن البيطار مفردات كتابه ترتيبًا أبجديًّا على طريقتهم المتبعة وقت ذاك، مع ذكر أسمائها باللغات المتداولة في موطنها.

ولقد تناول مؤرخو العلوم كتاب ابن البيطار السابق، وعلقوا عليه تعليقات ممتازة تدل على قيمته ومكانة المؤلف في مجال علم الأدوية (الصيدلة)، يقول محمد زهير البابا في كتابه "تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة": "يعتبر كتاب الجامع في الأدوية المفردة لابن البيطار أهم مؤلف في العقاقير ظهر في اللغة العربية حتى زمنه، وصف فيه ما ينوف عن ١٤٠٠ عقارًا، منها ٣٠٠ عقار لم يرد ذكرها في المؤلفات الأخرى.

وذلك ليسهل على الطالب بطلبه من غير مشقة ولا عناء ولا تعب. واتسم أسلوبه العلمي بالنزعة النقدية، مع التزام الموضوعية والنزاهة العلمية. وذلك يتضح لنا من خلال مناقشته لآراء السابقين عليه من العلماء والأطباء والعشابين. فلقد نقدهم في عدة أمور، وكان نقده بناء، فهو يرفض الآراء التي يثبت أن ناقلها قد انحرف عن سواء السبيل ومنهج العلماء السليم، أو لأنها لم تبث أمام مقاييسه العلمية التي يعتمد عليها... وهو لا يكتفي برفضها، بل إنه يتجاوز الرفض إلى توجيه النقد الشديد إلى الناقل أو القائل، لأنه افتلى على الحق".

وهكذا يتبين لنا أن علة نقده للسابقين لم تقتصر على الطب بمعناه الضيق، وإنما ظهر أيضًا في علم الصيدلة. وهناك العديد من الشواهد التي تدل على النزوع

hiramagazine.com

النبات وتحقيقه واختباره". لقد استطاع أن يخرج من دراسته للنبات والأعشاب بمستحضرات ومركبات وعقاقير طبية تعدّ ذخيرة للصيدلة العالمية. وقد شهد له تلميذه النجيب ابن أبي أصيبعة وحكى في مؤلفه عن رحلاته العلمية، حيث يخبرنا أنه كان كثيرالترحال، فرحل إلى شمال إفريقيا ومراكش والجزائر وتونس ومصر لدراسة النبات، وعندما وصل إلى مصر كان على عرشها الملك الكامل الأيوبي الذي التحق بخدمته معينًا رئيسًا على سائر العشابين، ولما توفي الملك الكامل، استبقاه في خدمته ابنه الملك الصالح نجم الدين الذي كان يقيم في دمشق، وبدأ ابن البيطار في دمشق يدرس النبات في الشام وآسيا الصغرى، بصفته طبيبًا عشابًا.

درس ابن البيطار كتب ديسقوريدس (ت٣٧٠م)، وجالينوس، وأبقراط، وأوريبازيوس، وابن سينا، والإدريسي، وأبي العباس النباتي، دراسة مستفيضة حتى أتقنها تمامًا، وشرح النقاط الغامضة فيها، وقد استفاد إلى حد كبير من مؤلفات السابقين، ورغم ذلك كانت مؤلفاتهم موضع تصحيحاته ونقده في كثير من الأحيان.

وهذا ما دعا "رام لاندو" في كتابه "إسهام علماء العرب في الحضارة الأوربية" إلى القول بأن "إسهام ابن البيطار في مجال علم النبات يفوق إنتاج السابقين من ديسقوريدس إلى القرن العاشر الهجري".

مؤلفات ابن البيطار وتميزه العلمي

لقد ساهم المناخ العلمي والفكري الملائم وازدهار العلم الطبي الذي عاش ابن البيطار في كنفه، في نبوغه العلمي، وهذا ما يبدو في المؤلفات العديدة التي تركها، ومن أهمها: كتاب ميزان الطب، كتاب شرح أدوية ديسقوريدس، كتاب الأفعال الغريبة والخواص العجيبة، كتاب المغني في الأدوية المفردة، كتاب الجامع في الأدوية المفردة.

ومن الجدير بالذكر أن ابن البيطار قد استفاد من الإسهامات التي قدمها ديسقوريدس، والذي كان له مؤلفات هامة من بينها كتاب "الحشائش" الذي قام ابن البيطار بترجمته ونقل منه الكثير في كتابه "الجامع للأدوية المفردة". وعندما قام ابن البيطار بترجمته

كانت لبحوث ابن البيطار في عالم الأعشاب والنباتات الطبية، وكذلك تجاربه الدوائية، واعتماده على الملاحظات الدقيقة والتجارب العميقة في هذا العلم التجريبي، أثره الذي لا ينكر في تقدم هذا العلم وتطوره على يد العرب والمسلمين.

حراء

لم يكتف فقط بترجمته ونقل نصوصه، ولكنه امتاز بعمق المعرفة والدقة في تناوله، حيث جمع المصادر الهامة لمادة البحث، ولم يكتف بمصدر واحد فقط، بل رجع إلى عدة مصادر، وعقد بعض المقارنات بين ديسقوريدس، وجالينوس، وعلماء العرب السابقين. وقد كان حريصًا على نقل أسماء النباتات بدقة، وأضاف العديد من التعليقات على هوامش الكتاب "الحشائش" للزيادة في الإيضاح وتوصل إلى نتائج جديدة.

وقد استفاد ابن البيطار من أبي حنيفة الدينوري الذي كان نباتيًا لغويًا، بينما كان ابن البيطار عشابًا وطبيبًا نباتيًا، تحدث عن النبات وأوصافه، أصله وساقه وورقه وزهره وثمره، حتى لا يخلط بين نبات نافع وآخر ضار، ثم يقف على ذلك بذكره ما يستخلص منه من عقار مفيد في العلاج، وكيف يؤخذ كدواء ومتى يؤخذ، وكيف يعدّ وكيف يتم تعاطيه ومقدار الجرعة.

كما استفاد ابن البيطار من العالم الطبيب والفيلسوف ابن سينا الذي استقصى نسبة كبيرة من النباتات، والتي كانت معروفة في عصره، فأورد في كتابه "القانون" طائفة كبيرة من النباتات الشجرية والعشبية والزهرية والعطرية والطحلبية، وبين الأجناس المختلفة من النباتات والأنواع المختلفة من الجنس الواحد وذكر المتشابه وغير المتشابه، وعنى بذكر مواطن النبات والتربة التي ينمو فيها إن كانت ملحة أو غير ملحة.

ولكن نجد تميز ابن البيطار عن ابن سينا في كثير من المواضع، فبينما نجد ابن سينا يهتم بدراسة النبات ويتناوله تناولاً عامًّا من حيث أوصافه الدقيقة التي تميزه عن غيره وذكر منابته، نجد ابن البيطار يركز على الخصائص الطبية وفوائده في العلاج ومداواة الأمراض، ويوجه اهتمامه إلى تفصيل المزايا الطبية.

hiramagazine.com

أ.د. بركات محمد مراد*

ابن البيطار

عالم الصيدلة وشيخ العشابين في الأندلس

هو ضياء الدين أبو محمد عبد الله ابن أحمد المالقي النباتي (٥٩٣-٦٤٦هـ)، المعروف بـ"ابن البيطار"، والملقب بـ"العشاب". ولد في مدينة "مالقا" (Malaga) الأندلسية، وتوفي في دمشق. تتلمذ على الأستاذ الكبير أبي العباس أحمد ابن محمد بن فرج النباتي المعروف بـ"ابن الرومية" صاحب الشهرة العظيمة في علم النبات.

كان ابن البيطار كثير الرحلة إلى بلاد اليونان والروم وجميع بلاد العالم الإسلامي.. كان يجتمع مع علماء تلك البلاد ويدارسهم في أنواع النبات، وخواصه وفوائده غير مكتف بقراءة الكتب والمصنفات. وكان في ترحاله يدرس النبات في منابته، بل يدرس التربة والحجر الذي ينمو فيه والأرض التي تنبته، والعوامل المختلفة المتركزة عليه، حتى إذا جمع خبرة طويلة مستندة على الملاحظة الدقيقة، ألف كتابيه المشهورين "المغني في الأدوية المفردة" و"الجامع لمفردات الأدوية والأغذية". ومن يقرأ هذين الكتابين، يجد ابن البيطار يمتاز بعقلية علمية أصيلة تميل إلى التجربة، وتؤمن بالمشاهدة والملاحظة والاستنباط، وتحري الدقة والأمانة العلمية في النقل. إذ كان لملاحظاته القيمة أثر كبير في تقدم علم الصيدلة أو الفارماكولوجي، ولذلك يقول عنه معاصروه: "إنه الحكيم الأجلّ، العالم النباتي، وعلامة وقته في معرفة

ولأنه منهج، فإن صوابه سرمدي ودوامه أبدي، أما إمكاناته فأزلية وثماره غير متناهية.

ب- ستظل الخلافة الراشدة التي أعقبت النبوة مخزن الرشد العميم، وخزانة المنهج القويم، ومسقط وحيي الكتاب والسنة، ومجمع أصلي النقل والعقل، ومنجم الذخائر والخبرات، وملتقى العباقرة والنوادر، وكنانة أسباب القوة، ومعمل المعادلات النهضوية، وجِراب الكمالات البشرية.

جـ- كان الحكم الراشد في هذه الأمة حافلاً بالمنجزات، زاخرًا بالمآثر، رافلاً بالمزايين، مُتْرَعًا بالجلائل، مشبعًا بالعظائم، طافحًا بالأمجاد، ومزدانًا بالمفاخر، وعامرًا ببدائع الصنائع، وزاخمًا بكل مبهر، ومزهرًا بكل مبهج.

د- خلق فكر الرشد أمة العطاء المادي والروحي، فقد كانت الغالبية من أبنائه تعطي من إملاق وتمنح من إدقاع، وكانوا يؤثرون غيرهم ولو كان بهم خصاصة.

هـ- ظل الرشد صدعًا بالحق وردعًا للباطل، انتصارًا للضعفاء وانكسارًا أمام المساكين، وكبحًا لجماح الطغاة وكسرًا لأنوف المتغطرسين، وسيظل كذلك ما بقيت عين تطرف وقلب ينبض.

الرشد يتسلح بالمنظومة السببية

اقتضت مشيئة الله بأن من يهزُّ جذع الرشد فإنه يساقط عليه رطبًا جنيًّا، ومنهج الرشد نفسه يتسلح بالمنظومة السببية، ويتوسّل بكافة الذرائع الشرعية سواء كانت مادية أو معنوية.

أ- الرشد فكرًا ومنهجًا وحكمًا يستضيء بشموس القرآن، ويستنير بقناديل الأكوان، ويستعبر بآيات الإنسان.

وإذا كانت منظومة الرشد تنهض على مقومات فإن هذه المقومات تنهل من أعذب الآيات، وتَمْتَعُ من أصفى السنن، وترتوي من آيات الأنفس، وتستقي من آيات الآفاق.

ب- الرشد في لُبّه المعرفي هو بحث في جوهر القرآن عن جواهره.. فهو غوصٌ في أعماق "السور" القرآنية لاستخراج أحجار "الأسوار" التي تحرس كليات الناس، ولصناعة "الأسورة" التي تُزيّن أيدي العطاء، ولإبراز الدوافع التي تسوق إلى كل خير، وتحليل العوامل التي تمنع من الوقوع في أي ضَيْر.

ولهذا فإن الرشد يضبط إيقاع الأمة وساعتها على توقيت "المدينة المنورة"، ويستخدم "البوصلة" القرآنية التي تضبط توجُّه الأمة نحو "مكة المكرمة"، ومن أشعة القرآن يصنع السُّرُجَ التي تنير دروب الحياة، ومن ثنايا القرآن يستنبط الضوابط التي تستر العورات وتُؤَمّن الرَّوعات، ويتولى تركيب المعادلات التي تصنع الروائع.

جـ- يتذرع أهل الرشد بالوسائل، ويتوسلون بالأسباب، ويتسلحون بالذرائع.. يواجهون أمواج الليالي بقوراب الضياء، ويقارعون سُدَفَ الظلام بوميض الآمال.. يقاومون كتائب النوائب بألوية المغاوير، ويجتثون أشواك العبودية بأشواق الحرية.. يصارعون أوجاع الفساد بمعاقرة أسباب الصلاح، ويدافعون آلام الضعف بمداعبة آمال القوة.

د- من استقراء منهج الرشد يبدو أن نَوَاتَهُ المعرفة، وبذرته القراءة، وخميرته الخبرة، وذروته الحرية، وصميمه العدالة، ودافعه الإيمان، وجوهره الاستقامة، وثمرته الفاعلية، وغايته العروج الحضاري.

هـ- منهج الرشد يجعل التغيير ذاتيًّا، انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١)؛ لكن هذه الآية تختصر ولا تختزل التغيير في الذات لأنه العنوان. ولهذا فإن للعوامل الخارجية فاعلية، لكن فاعليتها منوطة بالعامل الداخلي.

فهيا لنتفاكر حول كيفية تحصين الداخل بحيث يستعصي على عواصف الفتنة وأعاصير الغزو القادم من الخارج، ليكون قاعدة الوصول إلى المتن الحضاري المنشود عبر مراكب الرشد. ■

(*) أستاذ الفكر الإسلامي السياسي بجامعة تعز / اليمن.

بأصله الرباني في إقامته لدولة الإيمان ودولة القانون، وفي كلتا الدولتين يمتلك إمكانات هائلة وذخائر جمة، فعطاياه تمنح المرء الدهشة، وتُحَفُه تصيبه بالانبهار، وأمداؤه تُشعره بالذهول، ومنها:

أ- نجاحه المنقطع النظير في تحرير العربي من شلل التخلف، حيث اقتلع قيود التقليد التي كان فيها يرْسِف، ومزّق ثياب الجهل التي كان بها يأتزر، وقطع سلاسل الفُرقة التي كان بها يتمزق.

ب- إخراجه في عصر الضياء لميامين الناس وعظماء الخلق وأفذاذ البشر حيث أثمر عباقرة العلوم وفطاحلة الفكر وعمالقة التصوف وروَّاد الفقه وحكماء الفلسفة ودواهي السياسة ومغاوير العسكرية.

لقد كانوا أفذاذًا في السِّلم وبواسل في الحرب، وكانوا فطاحلة في القيادة وفطناء في الجندية.. ولماذا لا يكونون كذلك وقد خرجوا من مشكاة الرشد القرآني الذي يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار. ولقد شهدت أمتنا في عصر الراشدين انسكاب سحائب الرشد، فكان خيرها زلالاً وغيثها مدرارًا، وصارت جداولها مليئة بالخير الرقراق، وعيونها طافحة بالمعروف المتدفق فراتًا سلسبيلاً.

جـ- امتلاكه لحدائق مزدانة بالرجال، وبساتين مزهوة بكل ما يخلب العقول ويسبي القلوب ويأسر النفوس، من قيم حضارية وأخلاق بانية ونظم راقية ومعاملات سامية وأذواق رفيعة.. ومن ذلك رفعه للناس من الوِهاد إلى الآفاق، ومن الحفر إلى القمم، ومن الهُوّات إلى الشواهق.. إذ يمتلك منظومة متكاملة لتعليم الناس وتدريبهم على الارتفاع عن الأسافل والترفع عن السفاسف.

د- امتلاكه لخارطة الأمة القائمة على الخَلْق، الشاهدة على الناس، فهي في خارطة الرشد: ممشوقة الفكر، منتصبة القلب، شامخة الروح، سامقة الفؤاد، باسقة الإرادة، شاهقة العزة، مُشْرئبَّة الآمال، معانقةً لسحائب الغيث وغيوم العطاء.

هـ- إزالته للإشكالات وحله للمشاكل، حيث أوضح المبهمات وكشف الغوامض، فكَّ أعقد الألغاز وحل أصعب الأحاجي، استنقذ الحيارى من شباك التحيُّر ومن ضوانك التيه، وأنقذهم من سحر المتهوّكين وشعوذة المتخرصين.

و- إطلاقه لحريات الإنسان وقدراته وملكاته وفاعلياته في عمارة الأرض وصناعة الحياة وخدمة الخلق. ويرى الحكم الرشيد في هذا السياق أن خنْق حرية الفرد خرقٌ لسفينة المجتمع، ويَعُدُّ التفرد تفرعنًا والاستبداد استعبادًا والإكراه تأليهًا، ويعتبر الجَبْر رميًا للإنسان في غيابة التخلف وغياهب السلبية.. وفي ظل الحكم الراشد يتم استخراج المخبوء من كنوز الأرض واستظهار المطمور من نفائس الإنسان. ويمتلك قدرات هائلة على تثقيل سنابل المعروف وتغزير شلالات الخير وإقامة موازين الحق.

وعندما يضرب الرشد بعصاه على القلوب المتحجرة، تنفجر فيها منابع الخير، وتنبجس منها عيون المعروف ليجد كل أناس مشربهم.

ز- امتلاكه لمنهج التآزر وفقه الائتلاف.. ولأن الحكم الراشد منهج شامل في ارتياد الأرض وجلب الريادة للإنسان، فإنه يربي أهله على قيم التآزر والتضافر، ويحليهم بأخلاق التساعد والتساند، ويُسلحهم بأفعال التعاون والتضامن، ويمنحهم مفردات التجانس والتآنس، ويَهَبُهم مشاعر التغافر والتحابب.

يجمع مكونات الأمة عامة تحت راية التآلف والتحالف، ويمدهم بأسباب الاتساق والانسجام، ويمنحهم عوامل السلاسة والانسياب.

وفي ظل الفكر الراشد يتربى المواطنون على توطئة الأكناف لبعضهم وتعضيد الأكتاف، وطأطأة الرؤوس وإسلاس القياد، ووضع جناح الذل لإخوانهم.

يسعدون بحبور الطاعة، ويعيشون أفراح الروح، ويترفّهون في بحبوحة الجماعة، ويبتهجون بمتعة الأخوة ورفاهية الائتلاف.

الرشد منهجٌ أزليٌّ للبناء المتكامل

أ- الرشد منهج لا برنامج، وراية لا آراء، ولذلك سيظل قاعدة للانطلاق الحضاري في مختلف الآماد، ودافعًا للنهوض إلى نهاية الآباد.

hiramagazine.com

إنما تدل على ضعف الفقه الرشيد لسنن الله وحقائق هذا الدين، مما يؤكد أن أزمة الأمة في الأساس أزمة فكرية.

فإن الحكم الراشد الذي يقترب من نموذج الخلافة الراشدة، هو ذروة سنام الفكر السياسي الإسلامي، وثمرة بناء راشد يبدأ من الفرد الراشد الذي يوازن بين حاجات الروح ومتطلبات التراب، ثم الأسرة الراشدة التي تطير بجناحي الذَّكر والأنثى، ثم المجتمع الراشد الذي ينهل من السماء وهو يعمر الأرض ويستهدف فردوس الآخرة وهو يُفَرْدِسُ الدنيا فيستمد الهداية من النقل ويستحث العقل على العمل، يدرك أنه خليفة الله في أرضه فيكون واعيًا بتعاليم الاستخلاف حاضرًا حيث أمر، غائبًا حيث نهى.

والوصول إلى هذا المجتمع ما يزال بحاجة إلى بذل المزيد من الجهود الضخمة وإن كان الركب يسير، وإنّ اشتداد المؤامرات الداخلية والخارجية يؤكد أن قافلة الأمة تسير في الاتجاه الصحيح، حيث يحاول الأعداء عرقلة المسيرة برمي أحجار العثرة وتفجير قنابل الفتنة الموقوتة التي زرعوها لمثل هذه الظروف، ويريد الله أن يمحص النفوس وينقي الصفوف بهذه الزلزلة حتى لا تبقى إلا الأرقام الصحيحة التي تتحمل أعباء الحكم الوطني الراشد، توطئةً لإعادة الأمة الراشدة إلى مكانتها المستحقة كخير أمة أخرجت للناس.

فالرشد إذن، هو منهج متكامل يبدأ بالعقل الفردي الراشد وانتهاء بالحاكم الراشد الذي هو عقل الأمة ومضغة المجتمع.

هذه المقالة هي حواشي على متن الحكم الراشد، تلتزم المنهج العلمي وتتوسل بالأسلوب الأدبي، مشيرةً إلى إمكاناته الهائلة التي صنعت أعظم مكانة لأمتنا التي تبوأت مكانة الشهود الحضاري بين سائر الأمم.

الحكم الراشد فريضة لازمة وضرورة لازبة

وذلك لاعتبارات عديدة، وأهمها أنه:

أ- يمتلك الدواء الناجع لسمّ التخلف الناقع، ويستطيع تضميد الجروح وبَلْسمة المواجع، ويمتلك أعطيات الله القادرة على إحياء الأموات بإكسير الحياة، وإبْراء المصابين بداء الغثائية عبر ترياق الفاعلية.

إن المجتمع الراشد الذي ينهل من السماء وهو يعمر الأرض ويستهدف فردوس الآخرة وهو يُفَرْدِسُ الدنيا فيستمد الهداية من النقل ويستحث العقل على العمل، يدرك أنه خليفة الله في أرضه فيكون واعيًا بتعاليم الاستخلاف حاضرًا حيث أمر، غائبًا حيث نهى.

حراء

ب- يمثل بيئة خصبة لاستزراع أشجار "طوبى" الوارفة الظِّلال، ويمتلك نارًا محرقة لأشجار "الزقوم" الوافرة الضَّلال! فإن أحكامه تجلب الأمن والسلام؛ لأنها حربٌ على الحروب و"الحرابة"، واسترقاق لـ"السرقة"، وقتل لدوافع "القتل"، وقذف بأبابيل التخويف لجريمة "القذف"، وتجفيف لمنابع "الزنا" ودوافعه.

جـ- يجسد حقيقة الاعتصام بحبل الله المتين وكتابه المبين، ويحرص على مدِّ حبال الود مع الخلق وقطع حبائل الفتنة والخرق.. فإن من واجباته ربط العلائق ورتق الفتوق ومداواة الندوب، وتشييد الجسور بين الكيانات، وحتى بالنسبة للفرد فإن الرشد يمثل جسر العبور من الأثرة إلى الإيثار، ومن الشح إلى الإحسان.. ومن هنا يبدأ تحول الإنسان من فرد إلى شخص، أي إلى كائن اجتماعي تتجسد فيه كل إمكانات الائتلاف مع الآخرين تحت سقف القواسم المشتركة.

د- يحفظ الأمة من مصائد الشيطان ووساوسه وحبائله ونزغه ونفثه، حيث تصبح الدولة سفينة النجاة للأفراد، والشيطان -كما هو معلوم- هو ذئب البشر، وإنما يأكل الذئبُ من الغنم القاصيةَ.

وببركة الوحدة وتحت راية الدولة لا يستطيع الشيطان الاستحواذ على الكبار ولا احتناك الذُّرّية الصغار، ألم يقل الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾(الحجر:٤٢)؛ والغاوون هم عكس الراشدين.. فالراشدون بمنجاة من الشيطان لتحصنهم بدولتين: الدولة الإيمانية، والدولة القانونية.

"إمكانات" الرشد تصنع "مكانة" الأمة

أمة المسلمين هي خير أمم الناس بشهادة الله، وهي أفراد ودول انضموا تحت راية الحكم الإسلامي الراشد،

hiramagazine.com

أ.د. فؤاد البنا*

"إمكانات" الحكم الراشد
وصناعة "مكانة" الشهود الحضاري للأمة

يتعجب كثيرون من مآلات "الربيع" العربي وكيف تكالبت عليه المؤامرات حتى كادت أن تحيله إلى "شتاء" قارس ليس فيه إلا حرارة التفرق والاحتراب.

ويشعر كثيرون بالإحباط، لأنهم اعتقدوا بأن الخلافة الراشدة التي بشَّر النبي ﷺ بأنها ستعمّ الأرض قد حان أوانها وأَزِفَ زمانُها، ولذلك هالتهم التراجعات الحادثة.

وبرزت الآمال الكبيرة بخلافة راشدة معتقدين أنها كانت قاب قوسين أو أدنى من التحقق، وشعر بعضهم بالإحباط الشديد نتيجة انقسام "الثوار" وتصاعد "الثورات المضادة" واشتداد المؤامرات الخارجية. ويبدو أن كل تلك المشاعر الطيبة -مع احترامي الشديد لأصحابها-

المعنى والمآل، وإننا للأسف مستمرون "في ابتكار معضلات عبثية من العدم والفراغ... ولكن إبان ذلك، نشأت أجيال عديدة بلا مستند وَفَلك وعرفان وفكر، وبدهي بلا مِقْودٍ ولا ربَّان، في ظل الأهواء والرغبات وخيالات الأحلام... فاقدةً ملاحظاتها الميتافيزيقية، غائبةً عن صورتها وشخصيتها "الذاتية"، هائمةً عُمرًا في وهم أن تجد جوابًا عن سؤال: "من أنا؟" في الأسمال التي استجدتها من سبع عوالم، فبقيت مضطربة في أسر مدِّ المادة وجزرِها، وعاشت بلا لسان ولا قلب، وخلطت أحيانًا الدين بالأساطير، وفدت الأخلاقية في مراسيم الترحيب بالإباحية، وصبغت تلَقّيات الفنّ بلون الشهوة، وحوَّلت الشعر والموسيقى إلى رضاب يسيل من فم البذاءة... ثم وجدت نفسها في وسط الساحة القاتلة التي يتصارع فيها خمسون نوعًا من هذه الأغلاط. وبدهي ألا تكون النتيجة إلا كهذه"[١١].

والمتمرّس لفكر فتح الله يتأكّد أنَّ الوقوف على عتبة التذمُّر والتشاؤم والوصف والحيرة، ليس من طبيعة الأستاذ، ولا يلائم "نماذجه الإدراكية والتفسيرية"[١٢]؛ فهو في أسوء الأحوال متفائل، واثق في الله، متحفِّز متوفِّز، وهو في أحسنها، حذِر، خائف من الله، سائل عن حقيقة النصر والفوز، هل هو للابتلاء أم هو جائزة من الله سبحانه.

بناء على هذا التوازن في الفكر والفعل، بين التفاؤل المفرط والتشاؤم المقنط، نقرأ للأستاذ استدراكًا معقولاً، مما جاء فيه: "والواقع أنَّ نفخ الحياة في هذه الجنازة الحية عسير؛ لأنَّ مثل هذا الجيل قد صار غريبًا عن حياة من نوع حياتنا، ومخالفًا لقيمه الذاتية. ومع كل ما فيه، فإنَّ واجب النهوض به ملقىً على عواتقنا. ونحن نؤمن بأنه سينتفض على قدميه كسامع نفخة الصور، ويهتف بجدٍّ مُعلنًا "إقبالَ وجودِه" كرَّة أخرى، عندما تحيي المشيئة الإلهية إرادتنا"[١٣].

ومن ثم كان السؤال عن "ذاتنا الحضارية" بذرةً لكل حركية إيجابية على خطِّ الزمن وعلى سفوح المكان. وأمَّا الإغفال عنه فهو الحالقة، وهو مُبتدَأ السقوط والانحسار.. ولقد يُقاس منسوب "الحضارة أو التخلف" في أمةٍ ما بمدى وضوح هذا السؤال، وبمدى الاشتغال به، وبحقيقة الأجوبة التي تحوم حوله، وبمدى استجابة النظام التربوي لمتطلباته الملحَّة، وبالغاية المتوخَّاة من كل سياسة حيال هذا السؤال الديناميكي الفعَّال.

وصدق الله العظيم، وهو يحرِّك فينا هذه الطاقة الكامنة، ويأمرنا أمرًا ملحًّا، واضحًا، صريحًا، بقوله في محكم تنزيله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(الأنفال:١). ■

(*) مدير معهد المناهج، الجزائر العاصمة / الجزائر.

الهوامش

(١) جمعت مادة كبيرة من مصادر الأستاذ، تعالج "المصطلحات والمفاهيم" الحضارية، وطبع بعنوان: "الزمن والوقت: النصوص والمفاهيم المؤسسة للرؤية الكونية لفكر الأستاذ فتح الله كولن".

(٢) طرق الإرشاد في الفكر والحياة؛ ص٥. وينبغي في نفس السياق معالجة مفهوم "تأشيرة الوجدان"، دار النيل، القاهرة.

(٣) يقول علي شريعتي في كتابه المعنون بـ"العودة إلى الذات": "على كلٍّ منَّا نحن المفكرين عندما نقول: "فلنعد إلى ذواتنا" وكلنا مشتركون في هذا، على كل واحد منّا أن يطرح أمام نفسه هذا السؤال: أيَّ ذات؟"، نسخة مكتبة الإسكندرية، ص:٩٣.

(٤) ونحن نبني حضارتنا، دار النيل، القاهرة ٢٠١٣، ص:١١.

(٥) ونحن نقيم صرح الروح؛ دار النيل، القاهرة، ص:٥٨.

(٦) ونحن نبني حضارتنا، دار النيل، القاهرة ٢٠١٣، ص:١٨٩.

(٧) المصدر نفسه.

(٨) المصدر نفسه، ص:٦٥-٦٦.

(٩) قال إسماعيل في "تفسير روح البيان" وهو يشرح قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ من أوائل سورة الأنفال: "ذاتُ البين هي الأحوال التي تقع بين الناس، كما أنَّ ذات الصدور هي المضمرات الكائنة فيها... ولما كان ما حل في الشيء ملابسًا له، قيل إنه صاحب محلّه وذوه".

(١٠) للمفكر طارق رمضان، كتاب عالج فيه مفهوم الآخَر وعلاقته بالـ"أنا"، وهو باللغة الفرنسية بعنوان "الآخر في النحن: لأجل فلسفة للتعددية" (L'autre en nous. Pour une philosophie du pluralisme).

(١١) ونحن نقيم صرح الروح؛ ص١٣٩؛ مقال بعنوان: "ونحن نولي وجوهنا شطر أنفسنا".

(١٢) انظر المصطلح عند عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية، الجزء الأول.

(١٣) ونحن نقيم صرح الروح، ص:١٤٠.

hiramagazine.com

الفرد أم المجموع. وهو يرى أن الأسباب الخارجية ما هي إلا "مؤثرات ثانوية" لا تعمل ولا تؤثر إلا إذا وَجدت "الأسبابَ الداخلية الذاتية" ضعيفةً مهزوزة قابلة للتأثر. وهو في ذلك ينحو منحى مالك بن نبي في مفهوم "القابلية للاستعمار"، بل يصرّح بذلك في كتاب "ونحن نبني حضارتنا" فيقول: "ولكن جموع البشر لم تَعُد تَقبل أن تقع -كرَّة أخرى- في موقع "القابلية للاستعمار" بعدما بدأت تُدرِك ذاتَها بذاتها وبمقوماتها الداخلية الذاتية"[٤].

وحين استعراض "أهم مميزات الحركية الإسلامية والفكر الإسلامي" يشترط الأستاذ "أن يكون وجودُنا ذاتنا، وأن نجعل مطالبنا مطالب العالم ورغباته، ثم نجد مجرى حركة لنا في عموم الوجود، ونسيل بذاتنا في مجرانا الخاص ضمن مجريات عموم الكائنات، ويعني الحفاظ على خطِّنا الخاصّ إذ نتكامل مع الكائنات كلِّها"[٥].

ومن ثم فالمقرَّر أنَّ "الواجب علينا -نحن المسلمين- أن نَعود إلى أنفسنا وقيمنا، ونعزم على البقاء بذاتنا، ونتغذى من مصادرنا بأقصى قدراتنا".

ولكن السؤال هو: "ما هي مصادرنا إذن؟"[٦]

يأتي الجواب من الأستاذ أنَّ "مصدر الدين الإسلامي ومنبعه هو القرآن والسنة، فهو فائض من صدرهما"، ولا يعني هذا طبعًا، أن نستغني عن الاستفادة ما استطعنا من المصادر الأخرى، ومن ثم "يلزمُ المسلمَ ألاّ يهمل قيمه الذاتية البتَّة، وأن يحاول الاستفادة من المصادر الأجنبية بشرط استئذان النُّظُم والقواعد الأساسية الذاتية، وتنقيتها بالترشيح في تلك المصافي"[٧].

وفي سبيل تحقيق هذه الذات، والعودة إليها، والعبِّ من مصادرها، والتقوّي بمقوّماتها، والاستظلال تحت كنفها... في سبيل ذلك، تولَد أسئلة ملحَّة، وتقف أمامنا إشكالات أكيدة، ولا نملك إلا البحث عن مثل هذه الأسئلة في فكر الأستاذ فتح الله، سائلين المولى الجليل أن يجعلها فاتحة فهمٍ وعلم، وسبب حركية واجتهاد، ينتهيان بالتمكين للأمة في مختلف مستوياتها، ويكتملان بالنصرة والاستخلاف للإيمان والمؤمنين، حسب وعد الله تعالى الصادق: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾(النور:٥٥).

وفي كتاب "القدر في ضوء الكتاب والسنَّة" يقول الأستاذ شرحًا لهذه الآي الحكيم، وبيانًا لهذا الوعد المتين: "إن الله سُبْحَانه يعِد الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وإن هذا وعد الله، ووعده صادق بلا ريب، لأنه محال أن يُخلف وعده، وهو القادر على أن يفي به، فهو الحاكم على كل شيء. ولا شك أنه سيحقق ما وعده من الاستخلاف، وسيستخلف الذين آمنوا وعملوا الصالحات في الأرض. وعندها ستكون دفة الحياة الاجتماعية بأيديكم، وتنتظم الحياة الاقتصادية بتنظيمكم أنتم، وستدخل التربية الفردية والأُسرية في نظام جديد"[٨].

مَن أنا؟ سؤال عن الذات والآخَر

لا يملك الواصف لواقع المسلمين البارحةَ واليوم، إلا أن يجرِّد عشرات الأسئلة حول "الذات والآخر"، وعن العلاقة فيما بيننا، أي عن "ذاتِ بيننا"[٩]، ثم يستتبع هذا السؤال تعيين "الآخَر"[١٠] مفهومًا ومنهجًا وتطبيقًا بمختلف مستوياته وأشكاله وأنواعه؛ ولذا تعجَّب الأستاذ، وهو يشرِّح جسم الأمة داخلاً وخارجًا، فكرًا وعملاً، فغمرنا بهذا الوابل من الأسئلة العميقة، وقال: "مِن أين نفذ فينا الحقد والبغض والعداء والبرم ما دام تاريخنا بريئًا من هذه الأمراض؟ لماذا يبغض بعضنا بعضًا، ونتصب الفخاخ لبعضنا، ونفترس بعضنا افتراس الذئب؟ بل لماذا نحرم الحياة بعضنا على بعض؟ مع أننا منذ قرنين نكنّ إعجابًا وحبًّا عميقًا لفرنسا وألمانيا وإنكلترا وأمريكا، وأخيرًا لليابان؟ أم أننا مصابون بمرض في "الشخصية"؟

وإلا، لماذا نقول بلسان الحال: لا خير فينا! فنلجأ إلى الأرواح الأجنبية! نطرح القيم التاريخية لألف سنة في القِمة كطرح الُقمامة ضحية للأحلام والتخيلات؟".

ونتيجة لتهويماتنا وأوهامنا كانت الثمرة نتنة، وكان الواقع نكدًا، وكان الجيل على شفا جرف هار من هاوية

hiramagazine.com

د. محمد باباعمي*

ليكن صدرك عميقًا كالبحر، واسعًا كالفضاء، مفعمًا الإيمان، مترعًا بمحبة الإنسان.. بيدك الحانية امسح قلوب الحزانى، وكن بلسمًا وعزاءًا لجراحات النفوس، وأوجاع الأرواح.

الموازين

سؤال عن ذاتنا الحضارية

في التعبير عن "الذات الحضارية للأمة" يصرِّف الأستاذ فتح الله كولن المصطلحات والمفاهيم[1]، والمعاني والدلالات حسب السياق مع اعتبار المناسبة، متوخيًا في ذلك الوضوح والصدق، مخاطِبًا قلب المستمع والقارئ جنبًا إلى جنب مع عقله وحواسِّه ومداركه، ذلك أنَّ "العمل أو الفعل الحضاريَّ" هو الغاية المنشودة، وهو المقصد المرغوب.

ولذا لا نقرأ مقالات تحليلية تخصُّصية مدرسيَّة فيما نقرأ من كتابات الأستاذ فتح الله؛ ذلك أنه يصدر من معنى كليّ، وهو أنَّ الكلام الذي لا يصدر من القلب مع الاحتراق هو مجرَّد لغو، وفي ذلك يقول: "عندما لا يحترق القلب شوقًا، والروح عذابًا، والذهن همًّا، فلا تتكلَّم... وإلاّ فلن تجد أحدًا يصغي إليك...

وعندما تصاب الروح بالفتور، وتنخفض درجة حرارة القلب، ويخبو أوارُ الفكر، فأنت متوعِّك روحيًّا، فعليك أن تصمت؛ لأن الصمت هنا أبلغ من كلّ كلام ميت تقوله"[2].

ومن الألفاظ التي تدل على هذه الذات، نسجِّل للتمثيل ما يلي: أنفسنا، وقيمنا الذاتية، والفلك الذاتي، وعالمنا، وعالمنا الذاتي، وعندنا، وتاريخنا، وحضارتنا، ووجودنا، وذاتيتنا الخاصة، وكينونتنا الذاتية، ونحن... ومن هذه المصطلحات ما ورد عنوانًا لمقال، أو مضمَّنًا ضمن عنوان لكتاب، مثال ذلك: "ونحن نولي وجوهنا شطر أنفسنا"، و"نحو عالمنا الذاتي"، و"نحو عالمنا"، "ونحن نبني حضارتنا".

والأستاذ فتح الله يتخذ "الذات الحضارية"[3] معيارًا لكل حضارة أو تخلُّف، سواء في ذلك على مستوى

- استغفر ربك يا شيخ، لو أصبت بهذا المرض ما نفعك ولا مئات الملايين.

- آه لو قبل أن أموت أملك مليون.

وانفعلت الزوجة، وقامت تستغفر الله من شر ما نطق به.. وكأنما دوّى صوت القضاء والقدر من ضمير الغيب أن أُجيب طلبك، وستدفع الثمن غاليًا، وستكتشف أن كل نعمة من نعم الله عليك أعظم من أموال الأرض كلها، وستعلم هذا بعد فوات الأوان، ووجدت أمنيته السيئة بابًا إلى الله مفتوحًا فاستُجيب له.. في ساعة لا يرد فيها سؤال سائل.

وما هي إلا سنوات، سنوات معدودة، إلا وكانت الحال قد تغيرت به، وبعد نشاط ودأب في التجارة والعمل، فتح عينيه ذات يوم على مليون ريال في يده.. أمله الذي طالما تمناه، والذي ظل يحلم به في اليقظة والمنام.. حلمه الذي سعى ليلاً ونهارًا حتى أمكنه الحصول عليه.

كانت الفرحة قد أنسته الجزء الآخر من الأمنية.. وما كان ربك نسيًّا.. وفي ذات يوم كان الطبيب يتحسس جسده.. كشف رُوتِيني دوري تطلبه منه المؤسسة التي ما زال يعمل فيها. كان الكشف الدوري في غاية السهولة، حتى إن الطبيب سرعان ما يوقع تحت عبارة "لائق صحي".

في هذه المرة شيء ما أثار انتباهه، ركّز نظره عليه، ارتعش وهو يضع يده على ذلك الجزء المتورم من صدر مريضه.. كان لديه إحساس أنه هو.. هو.. بشحمه ولحمه.. الورم الخبيث.. ولكن لم يكن من حقه أن يقول شيئًا، فلعل الأمر لا يكون كما توقع، ثم إن الحكم بهذا المرض يحتاج إلى تحليلات أكثر، واستشاري أعلى منه، وحتى لو كان كما توقع فلا يجوز أن يبث الرعب في قلب مريضه.

أخذ الفحص بعض الوقت.. وبدلاً من أن يختم الطبيب بالختم التقليدي "لائق صحيًّا" وجده قد كتب "يُحال إلى استشاري لإجراء مزيد من الفحوصات"، وحاول ألاّ يدخل في حديث مع مريضه، خشية أن يبوح له بما في خاطره، ولذا فناول الورقة وهو يقول:

-لو سمحت.. ادع المريض الذي بعدك بسرعة.. أنا مضطر إلى أن أنهي حالات اليوم بسرعة لأن عندي موعدًا مهمًّا.

وخرج ويده تحمل الإحالة الطبية، والأخرى تتسلل بين ثوبه وملابسه الداخلية يتحسس بها ذلك الموضع.. هل يستحق الأمر كل هذا الاهتمام من الطبيب؟

ومن فوره ذهب إلى الطبيب الاستشاري، وهو يغالط نفسه في أنه لابد من إنهاء الإجراءات الصحية، وأنه سينهيها هذا اليوم حتى لا يتأخر عن أعماله ومشاغله ومواعيده.

وحين ذهب إلى الطبيب الاختصاصي، وجده يأخذ الأمر مأخذ الجد، ويبالغ في فحص الموضع، ثم يتصل بزميل له، فإذا بهما يتكلمان بمصطلحاتهما الطبية التي لا يعرف منها شيئًا، ولكن إحساسه الداخلي بدأ يقول له كل شيء.. قطع خيالاته صوت الطبيب يقول له:

- ستبقى عندنا حتى الساعة الخامسة لإجراء بعض الفحوصات الضرورية اليوم، وغدًا تأتي لنكمل لك الباقي من الأشعة والتصوير والتحليل.. ولكي يطمئنه قال له مهدئًا:

- فحوصات ضرورية، وإجراء احتياطي لا أكثر. ومضى أكثر من شهر فإذا به يشعر بآلام مبرحة في ذلك الموضع من بدنه، وكأن سكينًا حادة تقطع جسمه فيبكي.. ويبكي.. المرض يمنعه الراحة والنوم.. وتساقط شعر وجهه من الدواء الكيماوي الذي يأخذه في علاجه، وأصبح أحد المراجعين الدائمين للمستشفى التخصصي بالرياض.

وكان ينزل من قسم الأورام في الطابق الرابع من المستشفى التخصصي بالرياض يتحسس بيده اليمنى موضع الألم في صدره، وبنفس تلك اليد يستطيع أن يوقع على شيك بمليون ريال، ومع أن دعوته بالحصول على المليون قد تحققت، إلا أنه كان في داخل نفسه يعيش أشد حالات الندم.. ودمعت عيناه وهو يتذكر العافية التي كان فيها، وأنه لا يعادلها شيء، لا يعادلها شيء ولا كل الملايين التي على هذه الأرض. ■

(*) عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية / المملكة العربية السعودية.

hiramagazine.com

- ها أنت تعترفين رغمًا عنك.
- بماذا؟
- بأن المال هو الدنيا.
- لكنني مع ذلك أدعو ألّا يكون أكبر همي.
- وما رأيك إذن بقوله ﷺ: "نعم المال الصالح للرجل الصالح".

سكت برهة ثم أضاف..

- أنا رجل صالح إن شاء الله، وأريده لأشياء صالحة.
- عندك كل خير، ولكنك لا تشبع.. أعوذ بالله.
- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وليس من المال الصالح.
- أعوذ بالله من نفس لا تشبع.

مثل هذا الحوار أمر عادي متكرر في أكثر أيام الأسبوع بينه وبين زوجته.. وارتفع بعدها الظن إلى درجة اليقين أن زوجها مفتون حقًّا بالمال إلى درجة المرض.. كانت تضع يدها على صدرها كلما تذكرت ما يقول، فتخاف أن يكون جنونه به سببًا لأن يحصل عليه من طرق محرمة. وكم أنهت حديثها معه بأن يعصم نفسه عن الشراهة المتناهية للمال التي ستسوقه حتمًا إلى أن يكتسبه بأي طريق حتى لو كان محرمًا، كانت تقول:

- يا شيخ.. الله الله فيما تحضره لنا.. لا تكن هواجسك التي تعلنها بصوت مسموع سببًا أن تغمض عينيك وتأتي بالمال الحرام.. المال الحرام لا نريده.. لا نريده أبدًا.. ربي أغنانا عنه، نتحمل كل نقص في المعيشة أو اللباس، ولكن لا نتحمل أن تنبت أجسامنا من مال حرام.. قادرين أن نصبر على الجوع، ولكننا لا نستطيع الصبر على النار.

وكانت تجهش بالبكاء في نهاية كلامها، فيرق لها ويطمئنها:

- أبدًا تأكدي أن كل قرش أتيت به إلى هذا البيت كان حلالاً بعرق جبيني.. تأكدي أن الكلام شيء والواقع شيء مختلف، مختلف تمامًا.. لست بحاجة إلى من يخبرني عن ضرر المال الحرام.. أنا أعرف ذلك ولا أريد من يعرفني به.

كلماته مطمئنة.. وهي تعرف أنه لا يكذب، لكنها تشعر أنها لابد أن تنبهه قبل فوات الآوان.

وذات يوم كانا يشاهدان برامج التلفزيون، وكانت الفقرات الدعائية تعرض مواد استهلاكية كعادتها، وتقدمها بأسلوب مثير كأنه سوط يلهب الظهور للمبادرة فورًا إلى الشراء، لأن الفرصة الذهبية ستفوت كما تقول الدعاية.

كانا يتابعان الدعايات الجديدة، ثم ينصرفان عند تكرار دعاية من الدعايات القديمة.

وظهرت دعاية من الدعايات تعلن عن جوائز قيّمة؛ الأولى منها مليون ريال.. نعم مليون ريال عدًّا ونقدًا.. ولكي تكون الإثارة أكثر، انهمرت في شاشة التلفزيون آلالف الأوراق النقدية، ثم تراصت بشكل بياني بديع لترسم العدد مليون.

وفتح فمه من الدهشة وهو يرى هذا المشهد الذي يعده أعظم مشاهد الدنيا جمالاً وجلالاً وعظمة وروعة.

صرخ لا شعوريًّا:

- يا ليت أكون صاحب المليون.

قالت له:

- اهدأ قليلاً.. ترى كلها دعايات.. أنت متحمس، كأنك تشاهد حلقة من حلقات المصارعة الحرة.

قال:

- مليون ريال يا بنت الناس، هل ترين ما أرى؟
- نعم أرى، ولكنه وهمٌ.. وحتى لو صار حقيقة فلا يستحق هذا الانفعال.
- ما يستحق؟ كيف لا يستحق!؟

واستفزه برودها وعدم تأثرها.. فإذا به يفتح يديه بالدعاء:

- يا رب.. ترزقني مليون ريال، مليون ريال وليكن بعد ذلك ما يكون.
- ما معنى ما تقول؟
- وليكن معها أي شيء؛ وجع.. ألم.. أي مشكلة، حتى ولو مرض السرطان.
- مرض السرطان؟!
- نعم.

hiramagazine.com

د. عبد الله بن صالح العريني*

طالب المليون

وفي ليلة نهار.

- لكنه مهم.

- في الحياة أشياء مهمة والمال واحد منها فقط.

- أنا أراه أهمها.

- فليكن.. لكن معه أشياء مهمة جديرة أن تهتم بها.

- في هذه الفترة، المال هو كل شيء، المال عصب الحياة، المال عافية الأفراد والأمم والشعوب.

- ومن ذا الذي لا يحب المال؟

- المعقول، معقول.. أما أنت فغارق إلى أذنيك من كثرة ما تتكلم عنه وتفكر فيه ليل نهار.

- يبدو أنك تهذي.

- لست في وعيي في وقت من الأوقات كما أنا الآن.. أحلم باقتناء سيارة، منزل، أثاث جديد، رغبات كثيرة تحتاج إلى المال.. هل ألام على حبه بعد ذلك؟ ألست معذورًا؟

- حب المال فطرة، لكن الجنون به مرض وبينهما خيط رفيع جدًّا.

- أنا واقعي وأنت فيلسوفة.

- أليس من الدعاء المأثور: "اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا"؟

العراق والشام وتركيا وأواسط آسيا، والحنبلية في شبه الجزيرة العربية في الصيغة الوهابية، وفي السودان مع المهدية. وحكماء الإسلام عرب وعجم؛ الكندي عربي، والفارابي تركي، وابن سينا والرازي من فارس؛ "لو كان العلم في الثريا لناله رجال من أهل فارس". والتصوف والطرق الصوفية وحدت الأمة بين مصر والمغرب مثل أبي العباس المرسي والسيد البدوي، وبين مصر والشام مثل عبد الغني النابلسي، وبين تركيا وأواسط آسيا مثل النقشبندي، وبين إيران والغرب في المولوية، وبين السودان وأفريقيا في التيجانية والميرغنية والمهدية. حلقات الذكر منتشرة في كل مكان توحد روح مجتمعاتنا الإسلامية بعد تفتيت أوطانها واحتلال أراضيها وعجز شعوبها. مجتمعات لا زالت حاضرة بعلومها النقلية، ممثلة في القرآن والحديث والتفسير والسيرة والفقه، وثقافة دينية عالمية وشعبية في كل مكتبات الأمة ومساجدها وبرامج تعليمها ونشرها وتجديدها. كما هي حاضرة بعلومها العقلية والطبيعية الخالصة، تزخر بها مكتبات العالم الإسلامي وتفخر بفلاسفتها ومفكريها وعلمائها؛ الرازي والخوارزمي وابن حيان من فارس، والحسن بن الهيثم من مصر، والغافقي من الأندلس، وأولوغ بك صاحب المراصد من سمرقند، والطب والصيدلة للرازي وابن سينا وابن رشد وابن البيطار يوحد علم الأمة. وبالتالي فمنهج التدافع ينبغي أن يأخذ مكانه الذي يليق به في تشييد مشاريع بناء نهضة مجتمعاتنا، تدافع قائم على التنافس في الخير والتعاون بالخير والعطاء بالصبر وباحترام وحدة خيمة الأوطان، رحمةً بالإنسان الذي يعمرها، وحماية لأمنه الفكري والروحي والاقتصادي والسياسي. وكلما اشتد التمزق المجتمعي في أوطاننا وعظم علينا داء التفتيت، استدعينا طبيب عقولنا وقلوبنا ليصف لنا دواء علة الفرقة التي تسري في دمائنا.. دواء تركيبته؛ وحدة جنسنا البشري ووحدة عقيدتنا، وثقافتنا وعلومنا وإبداعنا التاريخي المشترك في شتى الميادين. ■

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل بـ"القنيطرة" / المغرب.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

صورة بلا تعليق

حمامة بيضاء كالثلج،
رقيقة وادعة كالزهر..
وحولها شرٌّ وأشرار،
ومخلب وناب..
فيا ويل الحمام،
من نيوب كالمنشار،
تشرب الدم، وتزدرد اللحم،
بلا ضمير يحاسِب،
ولا شرعٍ يؤاخِذ.

* * *

الاستخلاف لعمارة المجتمعات بالتنمية المعرفية والفكرية والاقتصادية والثقافية التي تستحق في ساحة المنافسات الحضارية العالمية.

الاتجاه الثاني: يؤسس مقولته على مفهوم التكامل والتعايش والتقريب، وجعل المبادئ والقيم الدينية المشتركة بين الشعوب والأمم أساسًا للتقارب والتعارف الإنساني. وهذا الاتجاه يتبناه المصلحون والحكماء، والمؤمنون بالعدالة من كل الاتجاهات المذهبية والفكرية والسياسية، ويتفقون على ضرورة الحفاظ على النتاج الحضاري الإنساني المكتسب تاريخيًّا، مؤكدين على أن دائرة الخلاف بين أهل الدين الواحد والمجتمع الواحد ليست ثراءً وتنوعًا في ظل غياب حرية التنوع، وآليات الحوار السلمي المجتمعي، والجدل المعرفي والاستدلالي، ولن تكون ثراءً وتنوعًا وتدافعًا، إن هي تحولت للعدوان والمصادرة والإلغاء وترويع سلامة الآمنين.

لا سيما وإن الإسلام رفض مقولة الصراع المسوقة عالميًّا، سبيلاً لحل التناقضات والخلافات التي تحدث بين فرقاء التعددية، وذلك لأن غاية الصراع ومآله إلى نفي وإلغاء الآخر، وبالتالي نفي وإلغاء التعددية واحترام الخصوصيات الثقافية للأمم ككل. وفي ذلك إلغاء لمفهوم التدافع والجدال بالتي هي أحسن، الذي ذكره المولى تعالى في كتابه الحكيم: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(فصلت:٣٤). والتدافع الذي يأمر به القرآن لا يلغي المختلف أو الآخر وإنما يسعى إلى ترشيده من موقع الخطأ إلى صوابية التوجه والسداد في تحقيق النجاح الدنيوي والأخروي.

وبالإضافة إلى التدافع، ركز الإسلام على مفهوم التنافس فقال: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾(المطففين:٢٦)، وحث على الإقبال بالمسارعة والتسابق إلى الخيرات: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾(آل عمران:١٣٣)، ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(البقرة:١٤٨).

ومفاهيم التدافع والتنافس والتسابق والمسارعة تبني المجتمعات ولا تهدمها، تحفز على المشاركة الحضارية العالمية والإنسانية ولا تلغيها، تجمع بين أفراد الأمة ولا تفرقهم، توحدهم ولا تشتتهم، ذلك لأنها تعتمد على أسس منهجية تنبني على تنوع وتعدد المشاريع والأعمال والأفكار ضمن دائرة الدين والمجتمع والحضارة. فالتطلعات والأهداف مهما كانت مبرمجة في عقل الإنسان، فإنه لا يستطيع إنجازها بمفرده دون تكامل وتنافس وتدافع وتعاون مع الآخرين. فلِم يغيب هذا المنهج الراقي في التدافع الإنساني عن مشاريع الإنجازات أيًّا كانت وفي كل المجالات؟ ولِم يغيب التدافع في دعم الجمعيات الخيرية والإنسانية بعضها لبعض؟ لِم لا يحضر هذا المنهج التدافعي في المعارضة السياسية فيحل محل النزاع، وتبنى نهضة مجتمعاتنا برُقي الإبداع التنويري مع اختلاف أساليب الأداء السياسي وتنوع البرامج؟ لِم لا يؤخذ بمنهج التدافع في البحث العلمي والمعرفي الجماعي؟ فيستبدل النزاع الفردي الأنوي على المشاريع، إلى كتلة وحزمة معرفية من العقول، تخدم مشاريع الأوطان لهندسة مشاريع تنمية حقيقية لمجتمعاتنا... لِم تتصارع المذاهب وتتنازع الطوائف والأديان مع تغييب -في لحظة الـ"أنا"- منهج الرحمة العالمية الإنسانية، فتصل إلى منحدرات درجة أمر الأتباع بقتل وذبح وحرق المختلفين أحياءً؟

وقد ننتقل من هذا الطرح العام الذي يحتل المشهد السياسي العالمي في النزاع، إلى تبني طرح راقٍ واقعي عشناه بكل فخر في مسار تاريخنا الإسلامي المشترك، وهو يفند تطبيقات عملية وواقعية لمفاهيم التدافع والمسارعة والمنافسة في إطار المقومات الدينية والثقافية الواحدة، التي حافظت -ولا زالت- على وحدة مجتمعاتنا ضد مخاطر التجزئة والفرقة والتفتيت. فالفِرق الإسلامية منتشرة في كل مكان سُنّة وشيعة وإباضية ودرزية، بل وأحمدية في أفريقيا وبهائية في الغرب، وإمامية وإسماعيلية في آسيا وفي الغرب. والمذاهب الفقهية واحدة منتشرة في كل ربوع الأمة المالكية في المغرب العربي، والشافعية في مصر، والحنفية في

hiramagazine.com

الحال إذا رغب كل إنسان عن أسباب التنازع في الحياة، معرضًا عن التنافس في متاعها والسعي لتعمير الأرض فيها كالرهبان في الأديرة؟ هذه الخلفية للتدافع والتنازع هي التي دفعت بعض الباحثين إلى الميل نحو إثبات وظائف إيجابية للتدافع في إطار المجتمع البشري. من أهمها أنه يدفع المجتمعات والدول إلى إعادة تقييم رسالتها وأهدافها، ومنها أنه يدفع إلى التغيير الاجتماعي من أجل إزالة الظلم وتحقيق العدل والسلم.

في إطار تنظيم الوجود الاجتماعي للإنسان وتحديد معالم لمجتمع الاستخلاف، بيّن القرآن الكريم بعبارات واضحة وبشكل دقيق، صورَ التفاعل الاجتماعي في المجتمع البشري في سائر أوضاعه وفي جميع مستوياته المحلي والدولي. فالقرآن يستخدم مصطلح "التنازع" للتعبير عن التفاعل الاجتماعي بين البشر في صورة صراع مادي، وهو الأمر الذي لا يجوز حدوثه بين من تربطهم عروة الإيمان، أو أبناء الوطن والإقليم الواحد نظرًا لمآلاته الخطيرة، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(الأنفال:٤٦). فالتنازع وفق المنطوق القرآني ليس قرينًا للضعف والفشل فحسب، وإنما يؤدي إلى فقدان الهوية وضياع الكيان الذاتي للجماعة، وفي هذا يستخدم القرآن مصطلحًا جامعًا لكل صور التفاعل الاجتماعي، وهو لفظ "التدافع" الذي يعبّر عن المشيئة الإلهية وسنته العامة في المجتمع، والتي بها تتحرك عجلة التاريخ وتتحقق حركة الأمم الحضارية نهوضًا: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾. غاية التدافع إذن في نظر القرآن، هي صلاح الأرض، ليس بإظهار الحق ودحض الباطل فحسب، وإنما أيضًا بالسعي فيها بالتعمير واستخراج كنوزها وخيراتها، فهو ابتلاء الإنسان لأن يتدافع على مستوى التفاعل الثقافي والاجتماعي بكل صوره. ومن هنا نفهم المنهج الفريد للقرآن الكريم في تنظيم التدافع في المجتمع البشري؛ وذلك بتقرير المساواة والتكافؤ بين الجنس البشري في الإنسانية، وباستيفاء الحاجات الضرورية للإنسان بصورة مرضية.

إن التدافع والتنافس والتسابق والمسارعة تبني المجتمعات ولا تهدمها، تحفز على المشاركة الحضارية العالمية والإنسانية ولا تلغيها، تجمع بين أفراد الأمة ولا تفرقهم، توحدهم ولا تشتتهم، ذلك لأنها تعتمد على أسس منهجية تنبني على تنوع وتعدد المشاريع والأعمال والأفكار ضمن دائرة الدين والمجتمع والحضارة.

حراء

فهو يتدرج في هذه المسألة فيضع مبدأ الإيثار والتطوع في قاعدة التفاعل الاجتماعي، ثم يزيل الأحقاد وأسباب التباغض والحقد الطبقي بالتوزيع العادل للثروة وجعل جزء من مال الأغنياء حق واجب للفقراء لا منة فيه ولا صدقة، ثم إحاطة كل ذلك بضمان حفظ الحاجات الضرورية؛ النفس والدين والعقل والمال والنسب، ورعاية الأمور الحاجية وجعل عنصر "الرضا" هو أساس التعامل في المعاملات والتفاعل الاجتماعي. أما الأمور التحسينية فمباحة وهي مجال للتنافس المطلوب بين سائر الناس.

واليوم تشهد مجتمعاتنا بأطيافها وأحزابها ومذاهبها، تجاذب اتجاهين متناقضين في الرؤية الاستشرافية المستقبلية لآفاق الحضارة والإنسان محور الكون.

الاتجاه الأول: يقوم على أساس الصراع وحتمية الصدام والتناحر بين مكونات المجتمع الداخلي، ويتعداه إلى المجتمع الخارجي في رفض الحوار بين الحضارات وأتباع الأديان والمذاهب والطوائف والأجناس، وتغييب منهج الإيمان بمبدأ التعايش، واحترام التعددية، والاختلاف بين الشعوب والأجناس والأعراق والثقافات والعادات. وهذا الطرح يزكيه ويلتحم حول مضامينه، اتجاه يحمل الفكر الصراعي القائم على الانفعال والانفعال المضاد، التعصب والتعصب المضاد، السب والسب المضاد، فيتميز المشهد بتناقضات تنوع مجتمعي قائم على تلون النزاع بتلون الانتماءات الدينية والاتجاهات السياسية والمذهبية والطائفية، ويعم الخلاف محل الاختلاف، والتصادم محل التدافع والتنافس، والإقصاء محل

hiramagazine.com

د. مريم آيت أحمد*

التدافع أم التنازع

متى ننظم منهج الاختلاف في مجتمعاتنا؟

عبر التاريخ البشري كان الصراع تجربة إنسانية ملازمة، اتخذت بين الحوار والتنازع وبين الإعمار والدمار صوَرًا مختلفة. فرغم أن الإنسان في تطور وتغير مستمر من الناحية الفكرية والمعرفية، إلا أن الجانب الثابت فيه هو قدرته على التنازع والتدمير. وهذه خاصية في الإنسان، فرغم مخاطرها الظاهرية يبدو أن ثمة حكمة إلهية جليلة تكمن فيها. إذ إن القرآن بيّن لنا أن النفس الإنسانية مفطورة على الفُجُور والتقوى، وهي السمة التي لولاها لصار الإنسان ملكًا كريمًا، ولكن جعل الله تعالى مهمة تكييف تلك النفس وتهذيبها للإنسان لتتخذ موقعها بإرادته لا بالجبر والإكراه، إذ قال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(البقرة:٢٥١)، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا﴾(الحج:٤٠).

وهذه المجاهدة التهذيبية التنظيمية المستمرة، هي التي تعكس رسالة الإنسان في الحياة، وتبيّن طبيعة الصراع الإنساني في أصوله التي بها تتحرك عجلة التاريخ وبها تقوم الحضارة والعمران. فكيف يكون

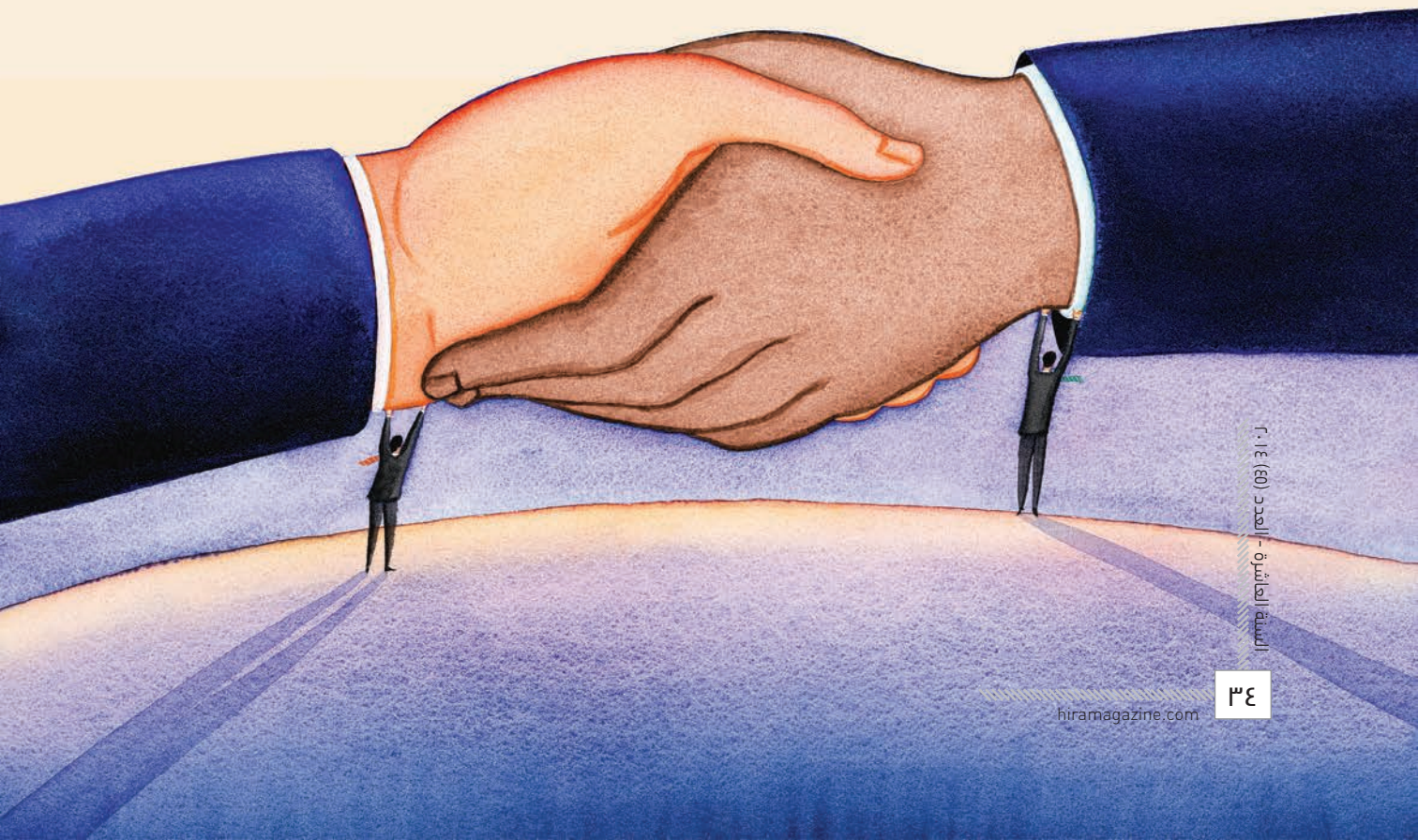

ومن أجل الاحتماء من أشعة الضوء المنعكِس على الجليد، فإن قزحيّة العين لدينا تَضيق تلقائيًّا حتى تتخذ شكل ثقب ضيق للغاية، وبذلك تنخفض قابلية انكسار الضوء ودرجة الحسر (قصر النظر) إلى حدودهما الدنيا. وفي العتمات تتوسع الحدقة إلى أقصى حدٍّ وتتحقق الرؤية بشكلٍ سهل. وبالتالي إن طبقاتنا الشبكية الصبغية مزودة أيضًا بعددٍ كبير من اللواقط الحساسة التي تستطيع التقاط أضعف نسبة ضوئية، كما أن كمية الأصباغ في هذه اللواقط التي تشبه القضيب، مضبوطة ضبطًا دقيقًا جدًّا. فعند الفقمات التي تعيش قرب السواحل، تزداد الأصباغ الحساسة للون الأخضر، أما عند الفقمات التي تغوص في الأعماق فتزداد لديها الأصباغ الحساسة للون الأزرق. إن الضوء المارّ من الطبقة الشبكية في العين ينعكس على هذه الطبقة ليتحوّل منها إلى خلايا اللواقط مرة ثانية ويتم الحصول على أضعف نسبة ضوئية. ولقلّة خلايا اللواقطِ مخروطيةِ الشكل عندنا، تضيق مساحة الرؤية الملونة كثيرًا.

الآذان ذات التصميم المميز

تتميز آذاننا بتصميم نتمكن من خلاله التقاط الأصوات في أعماق المياه بسهولة. علمًا بأن الأصوات تصل في الماء إلى مسافات تبلغ خمسة أضعاف ما تصل إليه في الهواء، الأمر الذي يتطلب ميكانيكية دقيقة في تحديد مصدر الصوت وبُعده في الماء. لذا فصيوان الأذن الداخلية التي تستقر داخل التجويف الصدغي لعَظْم الرأس، تتصل بهذه العظمة عبر نقطة معيّنة، وتنفصل عن العظام الأخرى لإتمام عملية عزل الصوت. وبفضل هذه المكانيكية الحساسة تصبح الأذن الداخلية معزولة عن الضجيج الذي يصدر من العظام الأخرى وتتحدَّد جهة الصوت بشكل صحيح.

أما الضغط الذي يفجّر سمعكم في الأعماق فلا يؤثر فينا، لأن تجويف الأذن الوسطى والقناة السمعية لدينا، مكسوة بطبقة نسيجية خاصة، وبفضلها تتم ضبط الضغط الداخلي للأذن الوسطى، ونتمكّن من التأقلم بالوسط المحيط بنا دون تعرّضٍ لأي أذى وضرر في السمع. فنحن نملك تحت الماء سمعًا قويًّا، ونسمع من الأصوات ذات الترددات العالية ما لا يمكنكم سماعها، وفي البر نسمع كما تسمعون على وجه التقريب.

إن الشعيرات الطويلة التي تعلو فمنا وتنتشر على أطرافه، حساسة للغاية.. فهذه الشعيرات التي تبدو وكأنها مجرد شارب بسيط، هي مصدر هام لحصولنا على المعلومات؛ إنها محاطة بأعداد كبيرة من الأوعية الدموية والأعصاب والعضلات، وبفضلها نتعرّف على الأجسام المتحركة في الماء، ونحدد مواضع الصيد، ونكتشف مواطن الثقوب على السطوح الجليدية، بالإضافة إلى أمور كثيرة لا نعرفها بعدُ.. هذا وقد تتصل هذه الشعيرات بدماغنا بشبكة معقدة جدًّا من الأعصاب.

وعليه فإنني عندما أغوص، يسدّ الماء أنفي فلا أقوى على الشم.. هذا لا يعني أنني أقوى على الشمّ في البر؛ لأن الجزء المخصص للشم في دماغي صغير بالنسبة لغيري، ولكنه يكفيني هذا الدماغ أنْ مكّنني من الشم لمعرفة الزوجة والتكاثر والعناية بالصغار.

إن شكل جسمي الأسطواني الرفيع الطويل، هو عنصر مهم في تقليل فقدان الحرارة خلال السباحة، وهذا ما يوفر لي البقاء على قيد الحياة. يوجد تحت جلدي دهون تتراوح سماكتها ٧-١٠ سم، الأمر الذي يؤدي إلى عدم وجود عازلٍ في زعانفي، وإنما يتم التحكمُ بكمية الدماء التي تصل إلى تلك الزعانف ثم بضبط الحرارة، عبر نظام دقيق خاص يمتد بين الأوردة والشرايين.

ولكن -للأسف- أصبح معظم أنواعنا على حافة الانقراض نتيجة صيدكم الجائر أنتم البشر.. فمنكم مَن يقتلنا من أجل أن يصنع منا الفراء، ومنكم مَن يقتلنا من أجل أن يأكل لحمنا، أو يحصل على دهوننا.. إلى متى ستظلون على هذا القتل والتدمير؟ أما آن الوقت لأن ترحموننا نحن الحيوانات؟ ألسنا كلنا خلق الله؟ فكما تملكون حق الحياة فنحن أيضًا نملك هذا الحق؟ آمل أن يكون حديثي هذا وسيلة ليقظتكم وصحوتكم من الذهول. ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: مصطفى حمزة.

hiramagazine.com

مسافة ١٠٠ كم، تملك القدرة على قطع ٤٠ كم في اليوم الواحد سباحةً وإيجاد أمهاتها بسهولة. وإن الأنثى الصغيرة التي تتعرض لحملٍ مبكر والتي لا تقوى على الرعاية، تُسقط فرخها لتنضج أكثر وتحمل مرة ثانية بعد سنة واحدة. وحتى تتمكّن من العناية بصغيرها خلال فترة الحمل، لابد لأنثى فيل بحر الجنوب أن تبلغ على الأقل ٣٠٠ كجم، ولابد أن تبلغ الأمهات ٣٨٠ كجم حتى تلد ذكورًا، علمًا بأن الأمهات التي تحمل دون هذا الوزن، تلد إناثًا. فوزن الذكر يزيد على وزن الأنثى عند الإنجاب بنسبة ١٤٪، أما هذه النسبة عند الفقمات الرمادية تتساوى بين الذكور والإناث. هذا وقد تحمل الأمهات من جديدٍ عند اقتراب موعد الفصام، كما يستمر الحمل نحو ١٠-١١ شهرًا، ولكن النمو الجيني في هذه الفترة يتغير تبعًا لغذاء الأم وإرضاع صغيرها السابق. فالجنين الجديد ينتظر في رحم الأم فترة تقارب أربعة أشهر دون تطور، وذلك لاسترداد الأم قوتها، وبالتالي النمو الحقيقي للجنين يستغرق ٦,٥-٨ أشهر. أما الفقمة ذات الأذنين ربما تحمل قبل أن تُتِمّ الأسبوع الأول من إرضاع وليدها الصغير، ويبقى الجنين في سبات حتى ينفطم أخوه الرضيع.

إن فيل بحر الشمال يغوص في عمق يصل إلى ٢٥٠-٥٥٠ إبان الهجرة، فتمضي الذكور ٢٥٠ يومًا في البحر ويقطعون خلالها مسافة ٢١,٠٠٠ ميل، في حين تمضي الإناث ٣٠٠ يومًا وتقطع خلالها ١٨,٠٠٠ ميل، وذلك لأنها تحتاج إلى غذاء أكثر لتتمكن من العناية بصغارها. وهذه الأرقام المذكورة تشكل أطول رقم قياسي بين الثدييات المهاجرة. فالفقمات التي تتزاوج في الشمال الباسيفيكي، تعود إلى موطنها الأصلي بعد رحلةٍ تبلغ ثمانية أشهر في البحر لتعيش أربعة أشهر أخرى على البر. كما تملك فيلة البحر الشمالي القدرة على النوم تحت سطح الماء ٢٥ دقيقة من غير تنفس، حتى إنها تصعد إلى سطح الماء وتتنفس ثم تغطس وهي نائمة.

عيون تبعًا للحاجة

صمِّمت عيوننا بشكل متميز عن باقي الحيوانات، وذلك لتتمكن من رؤية محيطنا جيدًا ولنواصل حياتنا في البر والبحر. كما أن قرنية العين لدينا ولا سيما لدى فقمات الجليد، تُصان بشكل خاص لكي لا تتأذّى من شدة الأشعة فوق البنفسجية التي تنعكس على السطح الجليدي. فمن ثم لم يضع الله العليم لعيوننا قناة للدموع، وذلك لتبقى عيوننا محفوظة من أملاح مياه البحار وذرات الرمال الصغيرة. ولو كانت لعيوننا هذه القناة الدمعية، لتسربت السوائل الدمعية عبرها إلى أنوفنا وأفواهنا، وانخفضت فاعلية الصيانة إلى حدٍّ كبير.. لذا نحتاج إلى هذه الدموع لكي نغسل عيوننا وننظفها بشكل دائم.

إن عدسات عيوننا أيضًا كروية الشكل كعيون الأسماك، وهذا الشكل يتيح لنا رؤية قوية في أعماق المياه. وعليه فإن قرينة انكسار الضوء بين قرنية عيوننا الخارجية وقرنية انكسار الماء، متساوٍ تمامًا، وهذا يساعد عدسة عيوننا الداخلية على التركيز والدقة في الرؤية.

ولكي لا تنقلب ميزتنا في الرؤية هذه داخل الماء إلى حالة سلبية في البر، فإن عيوننا تتحلّى بآلية قِصَر النظر.

hiramagazine.com

البلوغ مبكرًا.. وبذلك تم تعويض انخفاض عددنا. تهاجر أنواع كثيرة منا من منطقة إلى أخرى بحثًا عن غذائها، وإذا ما آن أوان التكاثر، عادت إلى مواطنها الأصلية في رحلة تبلغ مئات الكيلومترات. إنها تقوم برحلتها هذه دونما حاجة إلى خارطة أو بوصلة أو هادٍ إلا الفطرة والسَّوق الإلهي.

صغارنا

تتراوح فترة الرضاعة لدينا من ٣-٤ إلى ٥-٦ أسابيع حسب أنواعنا، ويتضاعف وزن الرضيع خلال هذه المدة ٢,٥-٣ أضعافًا، إلا أن فقمة بايكال ترضع صغارها من ٨ إلى ١٠ أسابيع، إذ يتضاعف وزن صغارها ٥,٥ أضعافًا. ولكي لا تموت هذه الصغار من البرد، فقد زوّد الرزاق الكريم وصاحبُ الرحمة الواسعة الأمهاتِ الحوامل بآلية تنتج الدهن بكميات كثيرة تحت الجلد، وبعد الولادة يتحول هذا الدهن إلى حليب يَرضعه الصغير. فعلى سبيل المثال، تبلغ نسبة الدهون في حليب الأم من فقمة الـ"Pagophilus Groenlandicus" في بداية الإرضاع ٢٣٪، ثم ترتفع هذه النسبة في نهاية الإرضاع إلى ٤٠٪، كما تنخفض نسبة الماء في هذا الحليب بالتوازي. ولذلك تقوم الإناث المرضعات بالصيام في فترة الإرضاع لتمنع دخول الماء إلى جسمها. وقد تنخفض الاستقلابات الداخلية في هذه المرحلة إلى أدنى مستوياتها، وبذلك تكون قد خصصتْ المرضعات كل جهودها لتغذية صغارها فقط. تُعَدّ الطبقة الدهنية السميكة -كما عند سائر الثدييات البحرية- خزّانًا للطاقة من جانب، وعازلاً هامًّا يحفظ الحرارة الداخلية للجسم من جانب آخر. وقد تكون الطبقة الدهنية تحت جلد الفقمة الحقيقية أسمك مما عند الفقمة ذات الأذنين. الحمد لله الذي زوّدنا بنظام استقلاب يساعدنا على تخزين هذه الطبقة من الدهون المفيدة. هذا وقد تنحف الإناث -التي تصوم لكي تحافظ على نسبة البروتينات والدهون والماء في حليبها- بعد فترة الرضاعة، إذ تفقد ٣٣٪ من دهونها و١٥٪ من بروتيناتها، و٤٠٪ من وزن جسمها. وعند فيل البحر الجنوبي (Mirounga Leonina) الذي يبلغ وزنه أربعة أطنان، يشكل الماء في الحليب في بداية الإرضاع ٧٠٪، وبعد عشرين يومًا من الإرضاع تنخفض هذه النسبة إلى ٣٣٪، وترتفع فيه نسبة الدهون إلى ٥٠٪. في حين يكون وزن صغار فيل بحر الشمال عند الولادة ٤٢ كجم، ولكن بعد أربعة أسابيع من الإرضاع يصل وزنه إلى ١٢٧ كجم.

أما صغارنا التي تنفصل عن أمهاتها بسبب من الأسباب -كالعواصف- وتضطر إلى الابتعاد عنها

بأنيابه الكبيرة الشبيهة بأنياب الكُبَع، فإن بعضنا الآخر من الفقمات تشتهر بفروها الوبري الكثيف، وبعضنا الآخر بأذنه.. كما يتميز بعضنا بالبنية التشريحية التي تؤثر على طريقة سباحتها.. وعلى الرغم من الفوارق البسيطة في إستراتيجيات الغطس والسباحة والصيد، فإن حركاتنا جميعًا تشبه بعضها البعض.

فنحن الذين ننتمي إلى عائلة الفقمات الأصلية (Phocidae)، زُوِّدنا بفقرات قطنية قوية جدًّا ومتحركة تساعدنا على المشي، وقد أستطيع تحريك رجلَيَّ العريضتين المسطحتين في نهاية الساقين الخلفيتين بسرعة فائقة، حيث تعمل هاتان الرجلان كمِرْوحة تولِّد طاقة كبيرة دافعة إلى الأمام وإلى الخلف. بينما لا تصلح أبدًا على السير على اليابسة. ولأن ذراعيَّ الأماميتين ويديَّ خُلقتْ بشكل قريب جدًّا إلى بعضها البعض، فإن ساقيَّ الأماميتين لا تملكان قوة دفع كبيرة. ولكن هاتين الساقين الأماميتين تعملان عمل دفّة التوجيه أثناء سباحتي في الماء، ثم تساعدني في الصعود إلى البر أو إلى البقع الجليدية. أما أنواعنا المعروفة بذات الأذن والمنتسبة إلى فصيلة الـ"Otariidae"، فإن فقرات صدرها ورقبتها أقوى من فقرات صدر الأنواع الأخرى، فهي تعتمد في سباحتها على حركة منطقة الورك نحو الأعلى والأسفل، كما أن القوة الدافعة لذراعيها الأماميتين أكبر بكثير مما عند الفقمات الأخرى.

الغوص في الأعماق

أكبر خاصية تميزنا عن باقي الحيوانات هي قدرتنا على الغوص في الأعماق، والتحمّل على ضغوط عالية تحت الماء، والبقاء في الأعماق مدة طويلة دون تنفّس.. وهذا أمر لا تقدر عليه الثدييات البرية أبدًا. وما هذه الخاصية الفطرية إلا آلية فيزيولوجية بديعة لنظام التنفس والدوران لدينا زوّدنا بها صاحب القدرة المطلقة والعلم الواسع اللانهائي. ففقمة وَدّال (Leptonychotes Weddellii) تستطيع الغوص في عمق ٦٠٠ متر، وأما مركز الصدارة في هذا المجال فلفقمة الفيل في الشمال (Mirounga Angustirostris). فشقيقتنا هذه، تستطيع الغوص بسهولة في عمق ١,٥ كم، كما أن فقمة الفيل (Mirounga Leonina) في البحر الجنوبي تقدر على البقاء في الأعماق ١٢٠ دقيقة بلا تنفّس. وقد لا يكون الضوء في هذا المدى من العمق كافيًا للرؤية لدينا، لذا زوِّدت عدسة عيوننا بآلية نستطيع من خلالها أن نصطاد حتى في أضعف نِسَب الضوء.

يقتات معظمنا على الأغذية الصغيرة الطرية، ومن أجل القَطْع والهرْس وهبنا خالقنا أسنانًا صغيرة وكبيرة تناسب حجمنا، حيث يصل عددها في الغالب إلى خمسة أسنان. وهكذا نتغذى على الأسماك الصغيرة واللافقاريات القشرية وعلى سمك الحبَّار. من أجل الحفاظ على التوازن البيئي في البحار، يتغذى كل نوع من أنواعنا بغذاء خاص به؛ فمثلاً بينما تقتات الفقمة الملتحية (Erignathus Barbatus) على الرخويات كجراد البحر والقريدس، فإن فقمة ويديل تعيش على الأسماك التي تصطادها بين الجليد الذائب، في حين تتغذى فقمة آكلة السرطان (Lobodon Carcinophagus) على السرطان، وفقمة الفهد (Hydrurga Leptonyx) تفضل في طعامها البطريق.

إن خالقنا العظيم القدير العليم، وضع نظامًا بديعًا نحافظ من خلاله على نسلنا ونتكاثر وننمو. فبعض أنواعنا كالفقمة المطوقة (Pusa Hispida)، وفقمة الميناء (Phoca Vitulina) تعيش بالقرب من الشواطئ وأعداؤها كثر، لذلك تصل إلى سن البلوغ في وقت مبكر، وقد يكون بلوغ الفقمة الرمادية، وفيلة البحر مبكرًا أيضًا، حيث تدخل غمار الحياة في وقت مبكر هي الأخرى. وإذا تجاوزنا فارق سنّ البلوغ لدى هذه الفقمات، فإننا نجد أن ذلك يزداد وينقص وفقًا لكثافة العدد، فإذا قلّتْ أعدادنا بسبب عدو أو وباء، تسارع النمو عند البقية وبلغت سن بلوغها في وقت مبكر. فمثلاً، في عام ١٩٤٥ كان سن البلوغ لدى فقمة السرطان، في عامها الرابع، ولكن عندما أصبح العدد ينخفض، راحت صغارها -في عام ١٩٦٥- تبلغ في سن السنتين أو السنتين والنصف. وعليه فإن اصطيادكم المفرط للحيتان في المنطقة، أدى إلى ازدياد قشريات الكريل التي تتغذى عليها هذه الحيتان، وهذا الأمر وفّر لصغارنا الغذاء الكثير، فراحتْ تنمو بسرعة وتصل إلى سن

hiramagazine.com

أ.د. عرفان يلماز*

الفقمة
أميرة الغواصين

عزيزي الإنسان.. أنا الفُقمة.. لقد سبق أن حدّثْتُك حيواناتٌ أخرى وكشفتْ لك بدائعَ الصنعة وشتى الحِكم في خلقها، ثم قامت بدورها بالرد على الطبيعيين الذين حاولوا تفسير الخلق من خلال نظرية التطور وتنميط الحيوانات ببعض المفاهيم البيولوجية كالطفرة والانتقاء الطبيعي. وها أنا ذا أقف بين يديك منتهجة نهج شقيقاتي في الرد على هؤلاء الطبيعيين، ومقدِّمة إليك النِعم والحِكم التي وهبنيها خالقي.

هل سمعتم بحيوان برّي يغوص في البحر إلى عمق ٦٠٠ متر، ويبقى هناك ساعةً كاملة دون تنفّس؟ أعتقد أنكم ما سمعتم بحيوان برّي من هذا القبيل؛ لأن جميع الثديات البرية لا تملك الخصائص التشريحية والفيزيولوجية التي نملكها نحن الثديات البحرية، ولذلك لا تقوم بالغوص في البحر ما لم تضطر إلى ذلك. أما نحن الفقمات، فالبحر وطنُنا، لذا نقوم فيه بالغطس والقفز والاصطياد وشتى الحركات بكل يسرٍ وسهولة. ولكن حركاتنا هذه تكون في البر محدودة إلى درجة كبيرة؛ كوننا لا نخرج إليه إلا من أجل الولادة والعناية بصغارنا. في حين يدّعي بعض الوراثيين أننا نزلنا إلى البحر قبل ٢٥ مليون سنة، ويزعمون -كذلك- أننا كنّا حيوانات برّية كاسرة كالدّببة والذئاب، ثم مع الزمن فقدْنا مواهبنا التي تمكِّننا من العيش في البر، ثم حصلنا مكانها -بالتدرُّج- على صفاتنا التي تتوافق وحياة البحر! ولا يسعني -أنا كفقمة- إلا الضحك على هذه العبارات الجاهلة التي يتفوّهون بها دون معرفةٍ أو تفكيرٍ بسماتنا التشريحية والفيزيولوجية المتكاملة البديعة.

فريق كبير

نحن الفقمات، وأُسُود البحر، وزعنفيات الأقدام، وفيلة البحر، نشكّل جميعًا عائلة بحرية كبيرة. لقد أظهر صانعنا العظيم بديع صنعه في أجسامنا؛ فكما أن بعضنا يُعرف

محققين بذلك بعض النجاح في هذا المجال.

وعبر دراسة الجسيمات المختلفة وقريناتها من الأجسام المضادة، تتنبأ النظريات العلمية أن كلاً منهما يجب أن يتبع القوانين الفيزيائية ذاتها. ويأمل العلماء عند الحصول على عدد كاف من الذرات المضادة، أن يروا ما إذا كانت ذرة الهدروجين المضادة يمكن أن تُصدر أو تمتص الضوء تمامًا بالترددات نفسها، كما هو الأمر بالنسبة إلى ذرة الهدروجين.

طاقة هائلة

في رحلة البحث عن جسيمات مضادة، استخدم نظيرُ الصوديوم ٢٢ مصدرًا للبوزترونات. إذ تطلق قطعة من الصوديوم وزنها غرام واحد ٢٠٠ تريليون بوزترون كل ثانية. ولكن هذه البوزترونات تنطلق وطاقتها تبلغ ٥٥٠ كيلو إلكترون ڤولط، تكافئ درجة حرارة قدرها ستة بلايين درجة مئوية وتتحرك بنحو تسعة أعشار سرعة الضوء، وهذه الطاقة يفكر العالَم اليوم في استغلالها، حيث إن ٤٢ ملّيغرام من البروتونات المضادة تمتلك طاقة تساوي ٧٥٠ ألف كيلوغرام من الوقود والمؤكسِدات. ولكن لابد من التغلب على العديد من الصعوبات قبل أن يصبح هذا الوقود متاحًا، حيث إن إنتاج ١٠ بيكوغرامات من البروتونات المضادة، يتطلب من مركز سيرن عمل ٢٤ ساعة كل يوم، وسبعة أيام كل أسبوع لمدة عام كامل.

أين اختفت المادة المضادة؟

إن واحدة من عجيب دلائل قدرة الله تعالى، أن تظل المادة في ظل وجود المادة المضادة، أي مع وجود أسباب فنائها. فوفقًا للنظريات، فإن المادة المضادة كانت موجودة بكميات متساوية للمادة عند الإنفجار العظيم، ووفق هذه النظرية كان ينبغي أن يفني بعضها البعض تمامًا في أول ثانية تقريبًا لوجود الكون. لكن بالرغم من ذلك وبقدرة الله نحن هنا، وكذلك الكواكب والنجوم والمجرات. ■

(*) رئيس جمعية الفيزياء بجامعة وادي النيل / السودان.

الإيمان واللسان

إذا فرغ القلب من الإيمان،
وخوى من اليقين؛
طال اللسان واستطال،
وتحوّل إلى حيّة لدَّاغة نَهّاشة.
وألسنةٌ أخرى،
لعَجزها، بالصمت تلوذ،
وإلى الخرَس تَصير.

* * *

لتفسير هذه النتيجة، افترض "ديراك" أنه من الممكن اعتبار الفضاء كبحر من الطاقة السلبية -وهو يسمّى بحر ديراك- وأن الإلكترونات لا يسعها إلا أن تطفو على سطح هذا البحر. بعد تفكير أبعد اقترح ديراك أن أيّ ثقب في هذا البحر يجب أن تكون شحنته موجبة، وتصوّر في البداية أن هذه الثقوب قد تكون بروتونات. ولكن العالِم "هرمان وايل" أشار إلى أن ثقبًا كهذا يجب أن تكون له نفس كتلة الإلكترون، وسمّيت هذه الثقوب المقترحة بالبوزترون وتم رصدها معمليًّا في عام ١٩٣٥.

الميلاد العملي

عقب أربع سنوات على تنبؤ ديراك المحير، ولد أول جسم مضاد على يد العالِم "أندرسون"؛ جسم له كتلة الإلكترون وعكس شحنته (أي موجب الشحنة)، وأطلق على هذا الجسيم المضاد للإلكترون اسم "البوزيترون". كما وجد جسيم مضاد للشق الآخر من الذرة (البروتونات) في العام ١٩٥٥ باستعمال مسرّع (معجّل) الجسيمات في مختبر لورانس بيركلي. وبعد ذلك استطاع المختبر الأوروبي لفيزياء الجسيمات في العام نفسه تركيب أول ذرة مضادة وهي ذرة الهيدروجين المضادة، وذلك بدمج البوزيترونات والبروتونات المضادة في مسرع للجسيمات.

في عام ١٩٩٥ نجح العلماء في إنتاج تسع ذرات من الهيدروجين المضاد. لكنها كانت نشطة للغاية ولم تكن مناسبة تمامًا للدراسة. لحل هذه العقبة ومن أجل التوصل إلى فهم أفضل للهيدروجين المضاد، تم إنتاج هيدروجين مضاد أقل نشاطًا وأكثر ملائمة للدراسة في السنوات القليلة الماضية.

ولكن من أكبر القضايا العملية التي يمكن أن تواجه إنتاج المادة المضادة هي قضة التخزين، حيث لا يمكن تخزين المادة المضادة في وعاء مصنوع من مادة عادية، لأن المادة المضادة تتفاعل مع أي مادة نفسها، وتبيد نفسها والحاوية. ولكن وبما أن المادة المضادة تتكون من جسيمات مشحونة، فيمكن احتواؤها من خلال مزيج من حقل كهربائي وحقل مغناطيسي في جهاز يعرف بـ"Penning trap". وهذا الجهاز لا يمكن مع ذلك

احتواء المادة المضادة التي تتكون من جسيمات غير مشحونة.

رحلة البحث عن المادة المضادة

توفر الأشعة الكونية كميات قليلة من الجسيمات المضادة، إلا أن المادة المضادة موجودة في الكون وبشكل واضح وقابل للقياس، فهي تتكون فوق رؤوسنا. ففي السنوات الماضية سجل تلسكوب الفضاء "فيرمي" حزمًا من المادة المضادة في الغلاف الجوي للأرض داخل السحب المطيرة والعواصف الرعدية تحدث نتيجة للبرق. ورصد العلماء حدوث أكثر من ٥٠٠ وميض يومي لأشعة "غاما" في الغلاف الجوي. وهذه الومضات من أشعة "جاما" تعطي دلالات أكيدة على أن العواصف الرعدية تنتج حزمًا من المادة المُضادة؛ حيث إن اصطدام أشعة "غاما" التي تتمتع بطاقة محدودة بجزيئات الهواء، يضع حدًّا نهائيًّا لها، كما تنتقل طاقتها إلى زوج من الجسمين المتضادين الإلكترون والبوزترون.

إن دراسة الجسيمات المضادة أو الذرات المضادة، يمكن أن يسهم بفعالية في تعميق فهم قوانين الفيزياء، ولذلك بدأ العلماء بمحاولة تصنيع مواد مضادة خاصة بهم، فابتدعوا في السنوات الأخيرة تقنيات متطورة،

hiramagazine.com

محمد هاشم البشير*

المادة المضادة

كيف ولدت؟ وأين اختفت؟

"إذا أردنا أن نرى التجلي الأعظم لاسم الله "القيوم"، فما علينا إلا أن نجعل خيالنا واسعًا جدًّا بحيث يمكنه أن يشاهد الكون بأسره، فنجعل منه نظارتين إحداهما ترى أبعد المسافات كالمرصد، والأخرى تشاهد أصغر الذرات". (سعيد النورسي)

في عام ١٩٢٨ ولدت قضية فيزيائية جديدة مدهشة تدعو إلى الحيرة؛ حيث اكتُشف أن لكل مادة نقيضها، ويعني ذلك وجود ذرات مضادة يمكن أن تجمع هذه الذرات المضادة، لتشكل أشياء مقابلة لكل شيء موجود في الكون؛ نجومًا مضادة ومجرات مضادة. إن المادة المضادة هي كالتوأم لمقابلاتها من المادة في كل شيء، إلا أن لها شحنة معاكسة. وهي تبشر بفناء عنيف إذا حدث والتقى الزوجان من المادة العادية والمادة المضادة معًا، لأنه عندما يصطدم جسم بجسمه المضاد، يفنى كلاهما وينشأ حريق هائل. فعند دمج غرام واحد من المادة مع قرينه من المادة المضادة، يطلق طاقة تكافئ نحو ٤٠ ألف طن من مادة التفجير (TNT)، أو طاقة تكفي ٥٠٠٠ منزل لمدة عام كامل.

الميلاد النظري

تَنبّأ الفيزيائي "بول ديراك" بوجود نقيض المادة حين قال: "إن لكل جسيم من المادة العادية جسمًا مضادًّا ذا كتلة مساوية لكتلة الجسم، ولكنه يحمل شحنة كهربائية مختلفة الإشارة". توصل "ديراك" إلى هذه النتيجة عندما خرج بحلول سالبة القيمة لمعادلة الإلكترون النسبية إلى جانب الحلول موجبة القيمة، مما شكل سؤالاً عريضًا وهو كيف تكون هنالك قيم سلبية للطاقة؟ في محاولته

كلمة الله ونصر دينه وغيظ عدوه.

والمذموم منه، ما كان للدنيا والرياسة والفخر والخيلاء والتوسل إلى الشهوات، وأن يكون هو غاية المرء وأقصى مطلبه، فإن كثيرًا من النفوس ليس لها همة إلا ذلك.

وأما ما لا يُحمد ولا يذم، فهو ما خلا عن هذين القصدين، وتجرد عن الوصفين.

من خلال هذا، يتبين أن الحكم الجمالي يعتمد على عدد من العوامل، في مقدمتها أن يكون مسايرًا للخط العام للمنهج، ومنها ما هو مرتبط بالوضع النفسي للإنسان، ومنها ما هو مرتبط بالحال والمناسبة التي يجري فيها الحكم.

إن اللباس إذا اتخذ للتجمل وإظهار نعمة الله على الإنسان فهو محمود، وهذا اللباس نفسه إذا اتخذ بدافع الخيلاء والتعالي فهو مذموم، وهو ما يؤكد على أن العامل النفسي هو المؤطر الأساس لهندام الإنسان، كما أن الفطرة قادرة على التمييز بين الحالين، ولكن وجود الضابط يمنحنا فرصة في إصدار الحكم.

أما الحديث عن البنية السيميائية للباس فتأخذ بعدين؛ بعدًا جماليًا وآخر وظيفيًا، وليس من المنهج تغليب أحد البعدين على الآخر، لما يؤدي ذلك من خلل في المظهر الإنساني، أو في الغاية الوقائية المناطة باللباس، وعليه فلابد من مراعاة عنصر الجمال وعنصر الوقاية في اختيار الهندام المناسب.

وعلى العموم يمكن أن نقول: إن الظاهرة الجمالية في هذا الدين، بناء متكامل يشد بعضه بعضًا في تناسق وتنظيم بديع.. إنها ليست فلسفة فردية استحسنها الآخرون فأصبحت مذهبًا، بل هي كيان قائم في ذاتية هذا الدين تدخل في لحمته وعمقه، يظهر أثرها من خلال اللون والشكل، ومن خلال التناسق والتنظيم، ومن خلال المواءمة والتعاون، فكل ما يرغب فيه هذا الدين أو يأمر به يوصل إلى الجمال. ■

(*) كاتب وباحث مغربي.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

يا قادمًا من بعيد

شَوَّاقَةٌ إليك قلوبُنا،
لَهَّافاتٌ عليك أرواحنا،
سئَّالة عنك عيوننا..
متى نَطوي أزمان الانتظار؟!
ولِمقْدمك وردًا نفرش الطريق،
وعطرًا نرشها؟!
متى تُبعث حياتُنا من جديد،
وبأنفاسك تحيا وبنورك تستنير؟!

* * *

إن الظاهرة الجماليــة في هذا الدين، بناء متكامل يشد بعضه بعضًا في تناســق وتنظيم بديع.. إنها ليست فلسفة فردية استحسنها الآخرون فأصبحت مذهبًا، بل هــي كيان قائم في ذاتيــة هذا الدين تدخــل في لحمتــه وعمقه، يظهر أثرهــا من خلال اللون والشكل، ومن خلال التناسق والتنظيم.

حراء

خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾(الأنعام:١٤٥)؛ إن كلمة ﴿رِجْسٌ﴾ في الآيتين العظيمتين تشير بوضوح إلى علة التحريم، والرجس هو القذر والنجس والقبيح، وبذلك يكون هو الوجه المقابل للجمال.

أرأيت دينًا يجعل الجمال والقبح علة في التحريم والتحليل أو حكمة؟ إنه الإسلام، فهل بعد ذلك من عناية بأمر الجمال؟ ولم ينحصر هذا في نطاق التنظير والتحليل، بل تجاوز ذلك إلى واقع الناس ومجال التنزيل. فقد عني المسلمون منذ الزمن الأول بأمر الهندام وأولوه عناية كبيرة، فاتخذ أشكالاً متنوعة وأساميَ متعددة بحسب الأعراف والعادات الموافقة لفحوى رسالة الإسلام في العناية بهذا الأمر في إطار التوجيه القرآني والبيان النبوي في هذا الموضوع.

إنه تدريب وتربية للمسلم من خلال النص القرآني، أن يستعين بالمقياس الجمالي في إتيان الأشياء أو الابتعاد عنها. ألم يطلب القرآن الكريم من المسلم ألا يرفع صوته بغير ضرورة؟ فكان التعليل لذلك بالقبح، فقال تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾(لقمان:١٩)، وهذا التركيب يفيد عِلّية النهي. يقول المفسرون في مثل هذا المقام: "إنّ" وما بعدها في مقام التعليل، وهكذا يكون التحريم بالقبح وهو تعليل بمقياس جمالي. أليس هذا تربية على استعمال المقاييس الجمالية والاستعانة بالحس الجمالي؟

المعيار الجمالي

خط القلمُ فيما تقدم، كيف أن القرآن الكريم عوّل على الحس الجمالي كدليل، والآن يتساءل القلم كيف نقيس الجمال؟ أو كيف نتأكد من مدى واقعية المقياس الجمالي وصحته في الإنتاج؟

إن الحس لا يهتدي إلا بهاد يهديه، وإن العقل لا يسترشد إلا بمرشد يرشده ومن الزلل يحميه، ولذلك كان لابد للحس من معالم يرجع إليها لضبط سلوكه في التصور الجمالي. فإن للصورة مفاهيم متباينة تستدعي من الحس الناقد تقليبها على أوجهها وسبر مكوناتها المؤدية إلى النتيجة، حتى لا يزيغ الحس الجمالي في الإنتاج.

وقد أدى انعدام ضوابط القياس الجمالي وانحرافها في عالم الفن إلى فساد عظيم في مفهوم الجمال، حتى أصبح القبح جمالاً أو كاد، كما هو ملاحظ في إنتاجات بعض المدارس الفنية، حيث وصل بها الفساد في الذوق الجمالي إلى فقدان التمييز بين الألوان الإبداعية في عالم الذوق الجمالي الهادف.

إن الفطرة السليمة يمكن أن تكون حكَمًا في هذه القضية، وقد أتاح لها الإسلام أن تأخذ دورها الكبير في تحديد استقامة هذا الحس، بيد أنه لما كان انحرافها متوقعًا نتيجة للعوامل الكثيرة التي تحيط بها، فقد وضع المنهج الإسلامي قواعد عامة يرجع إليها في الحالات التي يشتبه بها، أو في الحالات التي يفسد فيها الذوق ويتبلد الحس. إنه ليس إلغاءً لدور الفطرة وإنما التوجيه لها والأخذ بيدها، حيث تتاح لها حرية العمل في إطار المنهج الإسلامي العام؛ لأن الفطرة تنساق مساق العوامل الخارجية المحيطة بها.

وفي ميدان التربية الجمالية يحدد لنا المنهج المقاييس العامة لتصرفاتنا الجمالية، وقد لخص ابن القيم الجوزية -رحمه الله- الخطوط العامة للمنهج في هذا الميدان، فجعل الجمال في الصورة واللباس والهيئة ثلاثة أنواع؛ منه ما يُحمد ومنه ما يُذم، ومنه ما لا يتعلق به مدح ولا ذم.

فالمحمود منه، ما كان لله وأعان على طاعته وتنفيذ أوامره والاستجابة له، كما كان النبي ﷺ يتجمل للوفود، وهو نظير لباس آلة الحرب للقتال، ولباس الحرير في الحرب والخيلاء فيه، فإن ذلك محمود إذا تضمن إعلاء

hiramagazine.com

صهيب مصباح*

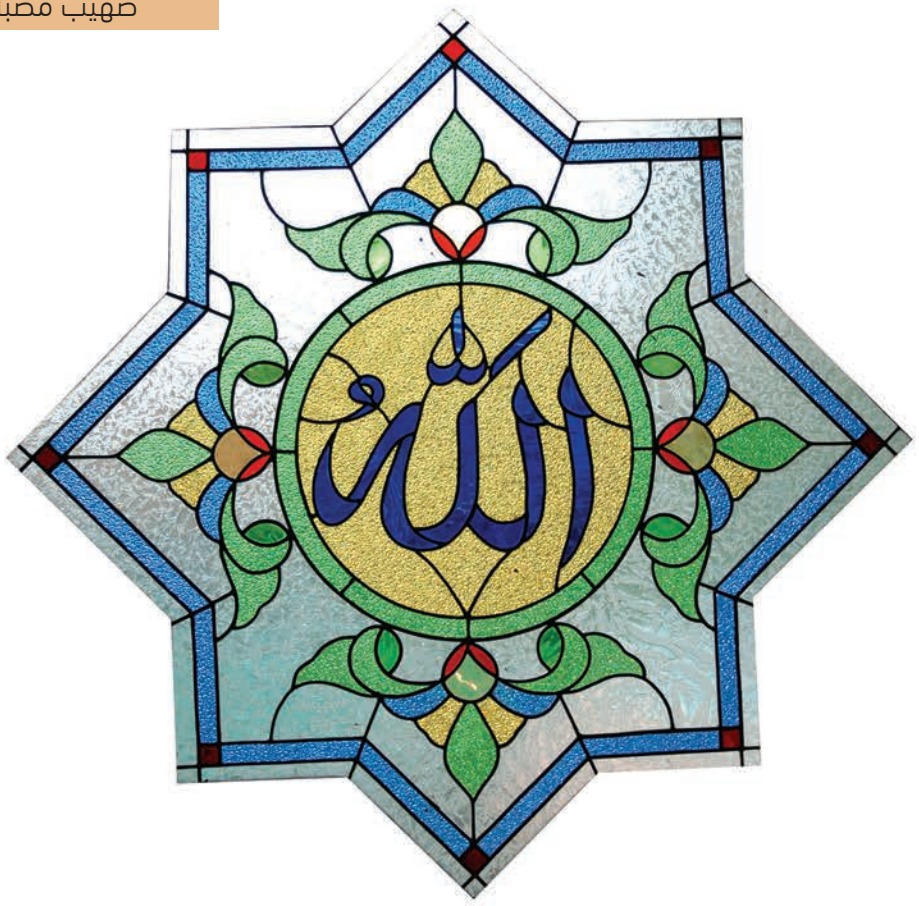

التربية على حب الجمال

١ الإسلام هو دين جعل من قضية الجمال موضوعًا جديرًا بالاهتمام مؤطَّرًا ضمن مواضيع الدين، فقرر له مكانته وجعله ضمن الواجبات التي ينبغي على المسلم السعي من أجل تحقيقها، بل إن القرآن الكريم وقف موقفًا صريحًا ضد الحاملين على قضية الجمال الإنساني، فأضاف الحق ﷻ الزينة لنفسه إضافة تشريف وتكريم، وفتح للإنسان مجالاً واسعًا من مجالات بناء الإنسان، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ﴾(الأعراف:٣٢)؛ إنها آية تقرر مبدأ عامًّا في المنهج الإسلامي مفاده أن التجمل أمر يطلبه المنهج لكونه من الفضائل المقصودة.

ولم يقف القرآن الكريم عند هذا الحد بخصوص موضوع الجمال، بل تذهب الآية الكريمة إلى مدى أبعد من ذلك، فتجعل الجمال والقبح أو الطيب والخبث علاً للتحريم أو التحليل، ليصبح الجمال دليلاً على التحليل والخبث دليلاً على التحريم، ومعينًا على تمييز الخبيث من الطيب والغث من السمين، وما الخبيث في ميدان الأطعمة إلا القبيح والسيء، وما الطيب إلا الجميل.

ويتأكد هذا المعنى فيما بثه الله تعالى في القرآن الكريم من ومضات جمالية دلت عليها إشارات بيانية لآيات القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(المائدة:٩٠)، وقال أيضًا: ﴿قُلْ لاَ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ

نسبيًّا، وتخزن المعلومات لأوقات قصيرة تتراوح بين ٠,١-٠,٥ من الثانية، حيث يتم نقل بعض المعلومات من الذاكرة الحسية إلى الذاكرة قصيرة المدى.

٢-الذاكرة قصيرة المدى: هي المرحلة ما بين الذاكرة الحسية والذاكرة طويلة المدى، وتشمل إدراكنا لكل الإحساسات والمشاعر والأفكار التي واجهناها، وتسمى أحيانًا بـ"الذاكرة العاملة". ولا تتلاشى المعلومات في هذه الذاكرة بسرعة كما هو الحال في الذاكرة الحسية، حيث تستمر فترة ٣٠ إلى ٤٠ ثانية ما لم يتم تجهيزها في مرحلة أخرى.

٣-الذاكرة طويلة المدى: هي الذاكرة القوية التي تحتفظ بالمعلومات والخبرات مهما كانت بعيدة أو قديمة، وتسترجعها في سهولة ويسر وبكفاءة عالية، وهي ذاكرة تقاوم النسيان عامة. وكما ذكرنا فإن التخزين في الذاكرة الحسية والذاكرة قصيرة المدى له سعة ووقت محددين، مما يعني أن المعلومة متاحة لوقت محدد، لكن الذاكرة طويلة المدى تقوم بتخزين المعلومات لفترة غير محددة ولها سعة تخزينية أكبر.

أوهام ضعف الذاكرة

ليست هناك ذاكرة قوية وأخرى ضعيفة كما يعتقد البعض، لكن الحقيقة أن هؤلاء الأشخاص يملكون ذاكرة غير مدرّبة؛ فالمعلومات التي يبدو أن الإنسان قد طوى صفحاتها، ما زالت موجودة بالذاكرة، ولكن لكي تظهر يلزمها إظهار (استرجاع). وكيف تمحى المعلومات وهي شاهد للإنسان أو عليه، ومرتبطة بسجل عمله الذي سيجده حاضرًا يوم القيامة، أيْ ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾(النازعات:٣٥)، وتتضمن المعلومات المتعلقة بالماضي القريب والماضي البعيد، وهي الأرسخ وهي التي تقاوم وتعمل مع وجود تلفيات في المخ وتستمر طوال الحياة.

كان الإمام الشافعي -رحمه الله- يقرأ الصفحة فيحفظها عن ظهر قلب، بل ويضع يديه على الصفحة المقابلة لكي لا يتداخل محتواها في عقله مع محتوى سابقتها. فكم عدد الترابطات بين النيورونات التي ذكرناها عن الشافعي لتتمتع ذاكرته بهذه القدرة؟ لم يكن للشافعي شيء آخر غير العقل الذي خلقه الله لكل الناس، ولكن كان له قلب ملؤه الإيمان والثقة بالله ﷻ.

فقدان الذاكرة

ذاكرة المرء كتاب تسطَّر صفحاته على مر الأيام، فهي أشبه بالمفكرة التي يسجل فيها الإنسان يومياته ويكتب فيها الأحداث التي مرت عليه، ليرجع إليها في المستقبل عند الحاجة. كذلك ذاكرة كل واحد منّا فهي تُثبِّت وتمحو؛ تُثبِّت ما يهمنا وتُغفِل ما لا نحفل به. وكما تصاب اليوميات بآفات فتتآكل منها ويبهت الحبر الذي تكتب به الصفحات ثم تضيع بعضها، كذلك الذاكرة الإنسانية تصيبها مثل هذه الآفات فتضيع منها صفحات ويبهت منها صفحات ويمحى البعض الآخر، كل ذلك في صفحات الماضي الذي سجله المرء خلال الحياة. وهذه الآفات هي التي يعبَّر عنها بأمراض الذاكرة أو فقدان الذاكرة.

فالإنسان يملك مليارات الخلايا الدماغية، ولكن مع التقدم في السن يموت معظمها من دون أن يتم استبدالها، كما يأخذ الجسد بإنتاج كميات أقل من الكيميائيات التي يحتاجها الدماغ ليعمل بشكل طبيعي. وبالرغم من أن الذاكرتين القصيرة الأمد والبعيدة الأمد لا تتأثران بهذه العملية عادة، إلا أن الذاكرة القريبة العهد من شأنها أن تتدهور مع التقدم في السن.

والآن بعد هذه الجولة السريعة التي خضناها بين سطور القدرة الإلهية، أدركنا أن الذاكرة ليست سوى شجرة متواصلة النمو تتغذى بالمعلومات الجديدة، فقط على الإنسان أن يحاول -من وقت لآخر- تشذيب فروعها، وإزالة بعض أغصانها الجافة والهشة التي لا حاجة لها.

إذن لا يكفي أن يكون لك عقل ممتاز، بل الأهم أن تستعمل هذا العقل استعمالاً صحيحًا... حكمة قالها الفيلسوف "ديكارت": ولكن كيف نستخدم هذا العقل؟ تلك المنحة الربانية.. سؤال يحتاج إلى إجابة. ■

(*) استشاري في طب وجراحة العيون، وعضو الجمعية الرمدية المصرية.

hiramagazine.com

الأحداث والتجارب والمرائي والمشاهدات؟ حاول العلماء الرد على هذه الأسئلة التي تشغل بال الإنسان من قديم الزمان بوضع بعض النظريات منها: نظرية الأثر للفيلسوف "أرسطو"، والنظرية المائية (Hydrau-licTheory) للفيلسوف الشهير "رنييه ديكارت"، ونظرية تحور الاشتباكات العصبية (Synaptic Modification)، ونظرية الحامض النووي (DNA)، ونظرية "المجال التكويني" (Theory of Morphogenic Field) للعالم الأمريكي "روبرت شيلوريك". لكن هذه النظريات وغيرها لم تتوصل إلى مكان الذاكرة في المخ.

فمن عجائب القدرة الإلهية في الخلق والتقدير، هذه الذاكرة البالغة التعقيد والمتناهية الدقة والمترامية الشمول، وما يجعلها مذهلة حقًّا كونها لا يوجد لها مكان محدد في المخ توضع فيه الملفات وتخزّن فيه الأرشيفات.

إلا أنه قد أجريت حديثًا عدة دراسات -على الحيوان ثم على الإنسان- تَبيَّن من خلالها بأن أهم المراكز العصبية في الدماغ للذاكرة هي المنطقة الصدغية من القشرة الدماغية (temporal area)، والأجسام الحلمية في منطقة الهيبوتلاموس (Mamillary)، والجهاز الطرفي أو الحافي (Limbic System)، كما يضاف إلى ذلك دور التكوين الشبكي في الدماغ (Reticular Formation).

وقد ثبت بأن الجهاز الطرفي -وأبرز الأجزاء فيه المسمى بـ"حصان البحر" (Hippocampus)- هو أهم جزء عصبي يقوم بوظيفة الذاكرة. كما ثبت بأن القشرة المخية الجبهية تلعب دورًا هامًّا في الذاكرة، وأن إصابة هذه القشرة المخية الجبهية، يؤدي إلى نسيان المعلومات الآنية.

كيف تعمل الذاكرة البشرية؟

هناك ثلاثة مراحل رئيسية تمر بها الذاكرة وهي الترميز والتخزين والاسترجاع.

الترميز: يتم تغيير المعلومات التي نستقبلها من البيئة المحيطة بنا إلى شكل آخر من المعلومات، بحيث يمكن للدماغ التعامل معها، وهي طريقة شبيهة بالطريقة التي يتم تغيير النصوص المدخلة للحاسوب من لغة بشرية إلى اللغة الثنائية.

التخزين: يتم حفظ المعلومات من أجل الرجوع لها عند الحاجة كما يتم تخزين المعلومات على القرص الصلب.

الاسترجاع: يتم إعادة المعلومات المرمزة مسبقًا، وإعادتها لنفس الطبيعة التي استقبلت بها تقريبًا، كما يتم في الحاسوب إعادة المعلومات باللغة الثنائية إلى أصلها كالنصوص مثلاً.

إذن، ما ينبغي أن نعيه جيدًا أن مراحل تكوين الذاكرة تتلخص في تخزين المعلومة، ثم الاحتفاظ بها ونقلها من مرحلة الذاكرة المؤقتة إلى مرحلة الذاكرة الدائمة، ثم المرحلة الأخيرة وهي مرحلة استرجاع المعلومة واستدعائها في الوقت الذي نحتاجها فيه.

فالعقل البشري يمتلك خصائص ومميزات هائلة وقوة عظيمة على التخزين والتذكر والربط والتحليل. هل تعلم أن عقولنا -مثلاً- قادرةٌ على الاحتفاظ بحوالي ١٠٠ بليون معلومة؟ وهذا الرقم يعادل ما تتضمنه دائرة معارف، وأنها تمتلك ٢٠٠ بليون خلية؟ أي ما يعادل عدد النجوم في بعض المجرات الكونية. ومع عجائب خلق الله فينا، إلا أننا فعليًّا لا نستخدم سوى واحد بالمائة من قدرات عقولنا، بينما تظل تسعة وتسعون بالمائة مهملة دون استخدام. يقول وليام جيمس: "إننا نستخدم أقل من ١٠٪ من قوانا العقلية".. كيف لو استطعنا استخدام ٢٠٪ من طاقة عقولنا، فكيف ستكون حياتنا عندئذ يا ترى؟

أنواع الذاكرة

قسّم العلماء الذاكرة إلى العديد من التقسيمات المختلفة، منها ما هو قائم على طول الذاكرة أو نوع الذاكرة أو قوة الذاكرة، إلى غير ذلك من التقسيمات العلمية التي تدخل القارئ في دوامة المصطلحات العلمية والتي لا يتسع المقام لذكرها، إلا أن أكثرها -قبولاً أو شيوعًا- هو ذلك التقسيم الذي يصنف الذاكرة الصريحة إلى ثلاثة أنواع وهي:

١-الذاكرة الحسية: وهي الذاكرة التي يتم تخزين كافة المعلومات المستقبلة عن طريق الحواس الخمسة بشكل فوري، وتمتلك هذه الذاكرة مساحة تخزين واسعة

hiramagazine.com

د. ممد السقا عيد*

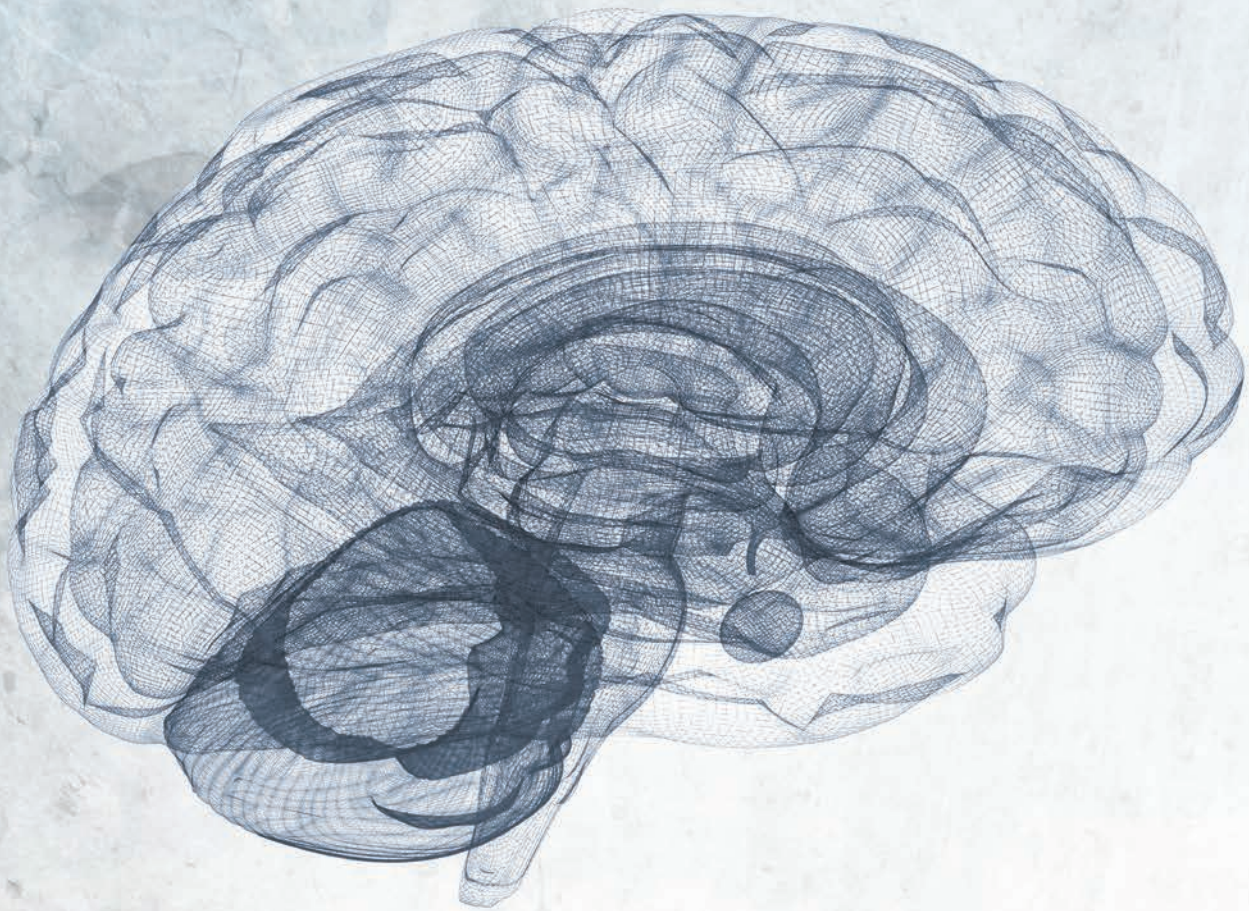

ما هي الذاكرة؟

١ اتفق العلماء على تعريف بسيط للذاكرة فقالوا: هي القدرة على تذكر التواريخ والوجوه والحقائق والمعلومات والأشكال والمعطيات. وعندما تكون الذاكرة فارغة أو مفقودة، يتعذر أن نعرف من نكون، ونصبح تحت رحمة أي مؤثر خارجي. وإذا علمت بأن مخك يحتوي على ١٠٠ مليار من الخلايا العصبية يربط بينها تريليون وصلة في كل سنتمترٍ مكعب واحد تطلق ١٠ مليون نبضة كل ثانية، عرفت بأن ذاكرتك عبارة عن مصنع كهربائي كيماوي معّقد موجود في عضو لا يزيد وزنه عن ١,٥ كجم تقريبًا.

لقد أظهر عدد من الاختبارات أن الإنسان يستطيع تمييز عشرة آلاف صورة من بين عشرين ألفًا كان قد شاهدها قبل أسبوع من الزمن. وتوضح الأبحاث العلمية بأن ذكريات الإنسان ليست "صورًا فوتوغرافية"، وأن تشبيه الذاكرة بـ"مكتبة" أو "خزانة المحفوظات" ليس إلا تشبيهًا خاطئًا، فليس هناك أية مكتبة مهما بلغت من الضخامة، ولا أي مخ حتى لو كان مخ فيل، قادر على احتواء هذا الكمّ الهائل من المعلومات.

أين توجد الذاكرة؟

أين تخزَّن الذكريات؟ أين يوجد ذلك الحشد الهائل من بصمات الماضي وعلامات الزمن؟ وكيف يستطيع مخزِّن الذكريات أن يستوعب ذلك السجل الحافل من

وجد نفسه خسر الكثير من العلاقات فوقه وتحته، وخسر الكثير من الفرص الثمينة وهو راض عن هذه الخسارة في نهاية المطاف، لأنه يرى نفسه قد كسب في مقابلها الشيء الكثير، كسب مساحات أوسع من نفسه. لا يدعي أنه كسب نفسه حقًّا، بل وسّع دائرة المنطقة المحررة من نفسه، والتي صبر فيها على مطاردة فلول الأصدقاء والمحبين والداعمين والمشجعين، وظل يمشطها مرة بعد الأخرى ليتمكن من سماع صوت نفسه.. تعوَّد أن يتجرع بعض المرارات، وأن يتوقع المفاجآت، وأن يتعامل بروح رياضية مع خيبات الأمل.. من المؤكد أن النفس بطبعها، تكره مثل هذه المعاني، ولكنه تطبّع معها، فذلك أرحم من أن يفقد صلته بنفسه وتعبيره عنها.

لدى المرء العاقل قدر من "الحكمة" تعني الحصافة والمجاملة المعتدلة، وحسن التعامل ولطف القول وحسن الإعراض، وقدر آخر يتعلق برؤية الصواب في أقوال الناس وأفعالهم؛ ليلتقطه ويبني عليه ويثني عليه ويكمل صوابيته دون أن يتجاهل اختلافه مع بعض جوانبه.

ليست الحرية هي التبجح، أو تعمُّدَ مناقضة الآخرين، واحترافَ المعارضة لمجرد المخالفة لفرد أو جهة أو تيار أو شيء مألوف لأنه مألوف، أو شيء جديد لأنه جديد، أو حكومة لأنها حكومة.. ولا هي البحثَ عن مواطن الزلل والخطل ومحاصرة الناس بها، وكأنه ظفر بكنز ثمين.. بيد أن التجربة تعطي أن كثيرًا من البشر لا يتوقف الأمر عندهم على موقف واحد أو مواقف عدة، هم يريدونك كُلّك بغير استثناء، ويريدونك دائمًا وأبدًا بغير توقيت.

قيد الزوجية، وقيد العمل، وقيد المدرسة العلمية أو الفكرية أو الدعوية، وقيد المجتمع، وقيد التيارات المتخالفة، وقيد السلطة، وقيد الأتباع، وقيد الجمهور، وقيد الشركاء.. ومن دونها قيود النفس من داخلها وما أكثرها، وما أشق الخلاص منها وأصعب اكتشافها، ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(الحشر:٩).

يبدو أن أكثر الناس تبجحًا بالحرية هم أقل الناس حظًّا منها، وقد قال أحمد بن داوود: "دخلت على الإمام أحمد بن حنبل في الحبس قبل الضرب، فقلت له في بعض كلامي: يا أبا عبد الله عليك عيال، ولك صبيان. وأنت معذور، كأني أسهّل عليه الإجابة، فقال لي: إن كان هذا عقلك يا أبا سعيد فقد استرحت". (طبقات الحنابلة)

في كتاب العبودية لابن تيمية يقول: "الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته، فما استرقّ القلبَ واستعبده فهو عبده، ولهذا يقال:

العبد الحر ما قَنِع والحرُّ عبدُ ما طمع

وقال القائل:

أطعتُ مطامعي فاستعبدتني
ولو أني قنعتُ لكنت حرًّا

ويقال: الطمع غِلٌّ في العنق قيدٌ في الرجل، فإذا زال الغل من العنق زال القيد من الرجل".

القناعة حتى في برامجنا ومشاريعنا، واعتدال حتى في طموحاتنا وتطلعاتنا، فذلك يحفظ قدرًا من الحرية الذاتية التي نعيش بها، ويصبح لحياتنا معنى. من دون العلاقة مع الآخرين وإحكامها من فوقنا ومن تحتنا ومَن يُساوينا لن يتحقق إنجاز ولن يكون نجاح. فلا علاقة مع الآخرين بغير تواصل وتفاهم وحوار وأخذ وعطاء وأخلاق وإغضاء. وبهذا ستحصل على قدر من النجاح والتميز يفوق ما تحلم به.

وهذا سيضعك في مواقف ومنعطفات ومِحكّات اختبار.. هل تمضي طلبًا للمزيد دون شروط ولو قدّمتَ نفسك قربانًا، أو تَحفظُ ما اختصك الله به وتَعبّدَك من المسؤولية الذاتية والرؤية الخاصة، وإن فَوّتَ ذلك عليك بعضَ ما تأمل وترجو؟!

الحديث هنا ليس عن موقف خاص يخطئ المرء فيه أو يصيب، والخطأ ذاته صواب إذا تعلمنا منه، بل هي مسيرة الحياة الممتدة وحصيلة التجربة والملاحظة التي يرصدها المرء طويلاً ليتحقق من صوابيتها، ثم يحاول الإمساك بها رسمًا وتدوينًا دون أن يكون ثَمّ جديد في عالمه الخاص. ■

(*) عالم ومفكر وداعية / المملكة العربية السعودية.

hiramagazine.com

د. سلمان العودة*

العلم عند الجادّين من رجال العلم كمنشور زجاجي لتحليل الحوادث وإضاءة ظلمات النفس والكون والحياة وما وراء الطبيعة.. فقيمة هؤلاء الرجال كقيمة سموهم في هذه الأجواء.

الموازين

ثمن الحرية

١

اشترى صغيري طيورًا في قفص وظل يضع لها الحَب والماء ويعتني بها.. نسي ذات مرة أن يغلق الباب، فوجد الطيور قد تركت القفص والحَب والماء، وخرجت تستنشق عبير الحرية وكأنها تقول له إن الحرية عندها أغلى من الحياة. التحرر النفسي من سطوة المعاني السلبية في أطوار النفس، ومن سطوة المؤثرات والضغوط الخارجية التي تعمل على تغييب الإنسان عن ذاته. من ادعى أنه يتمتع بكامل حريته فهو واهم، فثم أسوار وقيود مرئية وغير مرئية تكبل حركة الإنسان باختياره حينًا، وبغير اختياره أحيانًا. ثَمّ من الناس من يدركها ويتعامل معها بيقظة ووعي، وثَمّ من يَغفل عنها أو يتغافل.

الحرية شيء نسبي، والفارق الجوهري هو بين الساعين لتحصيلها وتحقيقها، بحيث يعبّرون عن أنفسهم في مواقفهم وكلماتهم وآرائهم وليس عن الآخرين، وبين من يؤدون دورًا رُسِم لهم، أو يسلكون طريقًا وجدوه أمامهم دون أن يكلفوا أنفسهم عناء السؤال "هل هو المتحدث، أم إن روحًا أخرى تلبّسته وهو يتحدث على لسانها أو هي تتحدث على لسانه؟".

في الناس من يعشق القيود ويستسلم لها ويغني لها، ولا تعجز لغته الغنية عن تقبيح الحَسن وتحسين القبيح. قيود العلاقات والقربات والصداقات والمصالح والذكريات والآمال والتطلعات والمال والوظيفة والسلطة والحاجة، هي دوائر تحيط بالمرء في حياته، وتضيق نطاق حركته، وتفرض عليه مزيدًا من المراعاة والمواربة. الذين يتحررون من هذه الضغوط تمامًا، هم أولئك الذين رحلوا عن هذه الدار، أما الأحياء فمستقل ومستكثر.

فجعل الأدب رساليًا ونزّهه عن العبث، وتلك خصيصة من خصائص الإسلام التي تشمل الوجود كله، فكيف إذا تعلق الأمر بالكلمة التي جعلها الإسلام مدار الحياة في الدنيا وبها تتأكد المنزلة في الأخرى، إذ لا مجال للفوز والنجاة إلا بتكريم الكلمة التي أعلاها كلمة التوحيد.

ولم تكن توجيهات رسول الله ﷺ للشعراء غير تأكيد لهذا التوجه الرسالي للكلمة الجامعة بين الحق والجمال، فلم يعد الجمال نقيضًا للحق، بل مؤازرًا له ومتممًا، فلا جمال أصلاً إلا مع الحق. وكذلك انتهت تلك الثنائية المجحفة النكدة التي تتساءل: أيهما أولى، المتعة أم الفائدة، الحق أم الجمال؟

ولكن الأدب العربي أصابته بعد ذلك -في مراحل معينة من تاريخه- مظاهر من الانحراف، إما بفعل التآكل الداخلي وإما بفعل العوامل الخارجية نتيجة الاستضعاف الحضاري.

واليوم وفي هذه المرحلة من تاريخنا المعاصر، وفي ظل العولمة وآثارها والتجاذب بين الحوار الحضاري وصراع الحضارات، وما ينتج عن ذلك كله من آثار تنعكس سلبًا وإيجابًا على كياننا الحضاري، نحن مدعوّون إلى تصحيح مسيرة الأدب، والانتقال من حضارة الأدب إلى أدب الحضارة، من أجل أن نجعل الأدب مساهمًا حقيقيًّا في البناء الحضاري الذي لا يستكمل شروطه الإنسانية إلا بالعناية بالروح، ومن أعظم تجليات تلك العناية الروحية العناية بالأدب والفن.

ولا بأس من الاستعانة مرة أخرى بكلام لـ"كولِن ولسن" وهو يتحدث من داخل المدنية الغربية ويرى آثارها المدمرة، ويبحث عن ملاذ في الشعر الذي هو قرين التصوف: "إن الرؤيا الصوفية تتم حين يزاول الإنسان نظرة عصفورية على الحياة؛ أي حين ينسحب منها ولو للحظة واحدة، فيرى منها قدرًا أكبر بدلاً من بقائه محصورًا ضمن البؤرة الضيقة بؤرة نظرته الدودية المعتادة".

إن التوازن في كل شيء شرط حضاري، فالحياة

نحن مدعوّون إلى تصحيح مسيرة الأدب، والانتقال من حضارة الأدب إلى أدب الحضارة، من أجل أن نجعل الأدب مساهمًا حقيقيًّا في البناء الحضاري الذي لا يستكمل شروطه الإنسانية إلا بالعناية بالروح، ومن أعظم تجليات تلك العناية الروحية العناية بالأدب والفن.

التي أرادها الله تعالى حياة قويمة تحقق الاستخلاف الإنساني في صورته المثلى، إنما تقوم على الزوجية لا على الثنائية التي تفرض الانتصار لعنصر من العنصرين، الثنائية تضاد والزوجية تكامل، وقد قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۞ فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾(الذاريات:٤٩-٥٠). وهذا الإطلاق ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ خليق بأن يبصرنا بحقائق الأمور المادية والمعنوية على السواء، كما أن من مظاهر ذلك، الفرارُ إلى إقامة سننه. ونحن إنما وقعت نكستنا الأدبية يوم غفلنا عن هذه الحقيقة، وعطّلنا سنن الخالق في الخلق، فجنح بعضنا إلى الثنائية المانوية بدلاً من الاستعانة بقانون الزوجية، ورحم الله أبا الطيب القائل:

وكم لظلام الليل عندك من يد
تخبر أن المانوية تكذب

وعلى أساس تلك المانوية المختفية، ظهرت المفاضلة بين المنظوم والمنثور، والمعنى والمبنى، والشكل والمضمون، والوضوح والغموض، والمتعة والفائدة، والحق والجمال، والذاتية والموضوعية، والفردية والجماعية، والحرية والالتزام... وما إلى ذلك من الثنائيات التي انعكست على الأدب ومجالاته. وهكذا، بدلاً من البحث عن خصائص كل عنصر ووظيفته وضرورته وعلاقته بطبيعة القول الأدبي، جنح الجانحون إلى إثارة المعارك الوهمية التي ألهتهم عن تحديد عناصر المعركة الحقيقية المتمثلة في طبيعة الأدب ورسالته ودوره في البناء الحضاري. ■

(*) رئيس تحرير مجلة المشكاة / المغرب.

hiramagazine.com

الأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(غافر:٨٢).

لقد أوتي داوود عليه السلام وذريته من بعده ملكًا عظيمًا، وألان الله له الحديد وصنع حضارة مادية خارقة.. وكذلك حال ولده سليمان عليه السلام، بل لقد أوتي سليمان ما لم يؤت أحد من العالمين؛ لقد آتاه الله تعالى ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، وبلغت حضارته ما لا يمكن تصوره اليوم على الحقيقة، لا في سرعة الاتصال المسموع والمرئي فحسب، بل العيني أيضًا، وتشهد على ذلك -إن كان الأمر بحاجة إلى شهادة- قصته مع بلقيس ملكة سبأ صاحبة العرش العظيم بالوصف القرآني.

ومع ذلك كانت مزامير داوود عليه السلام رمز الروح والأدب والفن وكان إعجازها الباهر، فقال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾(الأنبياء:٧٩)، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾(سبأ:١٠). وبقي على الدهر من عهد سليمان عليه السلام نشيد الإنشاد، أو بقي ذكره على الأقل، إذا كانت صورته المتداولة اليوم لا يجوز أن تنسب إلى نبي من أنبياء الله تعالى. وكل ذلك دليل على ضرورة تضافر أشواق الروح وصرامة المادة من أجل بناء حضارة إنسانية متزنة ومتوازنة.

هذا ويصف "كُولِن ولسن" الواقع الحضاري المعاصر فيقول: "لقد بلغ الإنسان مركزه الحالي الرفيع في هذا العالم بفضل كونه أكثر المخلوقات عدوانية وعشقًا للمغامرة في الأرض. وها هو الآن بعد أن خلق لنفسه حضارة يسرت له الرفاهية، يواجه مشكلة لم يكن يتوقعها. فالحياة المريحة تنقص من قدرته على المقاومة والصمود، وبالتالي يجد نفسه مترديًا في حمأة تنعدم فيها البطولة".

ويتحدث عن الشعر الذي يمكن أن يكون حلاً لهذا الواقع المتردي فيقول: "والشعر يجلب راحة عاطفية في طريق التخييل، وهو يعلّم الإنسان الثناء، لا عن طريق الإشارة إلى عجائب الكون كما يفعل العلم، بل بفضل خلق خيالات تحقق رغباته".

هذه الرسالة التعليمية هي التي أكدها تراثنا العربي، وقد قال أبو تمام:

ولولا خِلالٌ سَنَّها الشِّعرُ ما دَرَى
بُناةُ العُلا من أين تُؤتَى المَكارِمُ

كانت الحضارة العربية قبل الإسلام حضارة أدب، يحتفل العربي بالبيان ويحتفي به احتفاء عظيمًا. يحدثنا ابن رشيق القيرواني عن منزلة الشعر خاصة والبيان بعامة عند العرب فيقول: "العرب أفضل الأمم، وحكمتها أشرف الحكم، لفضل اللسان على اليد"، وقال مبينًا مكانة الشاعر العربي في قومه: "كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك" إلى آخر ما ذكر من مظاهر الاحتفاء. وما ذلك إلا لِما كان يقوم به الشاعر من دفاع عن قبيلته ونشر لمحامدها وتخليد لذكراها في الصالحين. ولكن الشاعر الذي كان يجد من قبيلته جل مظاهر الاحتفاء، قد يتحول فيصبح وبالاً عليها ولعنة يجر عليها من المخازي شيئًا كثيرًا. كما أن قصيدة من شعره قد تشعل حربًا ضروسًا تأتي على الأخضر واليابس. وقد يكون الشعر وبالاً على صاحبه، وقد ذكر ابن رشيق أيضًا عددًا من الشعراء الذين كان شعرهم سببًا في مصرعهم.

ولكون حضارة العرب في الجاهلية حضارة أدب، لم يكن يعنيها الحق بقدر ما كان يعنيها الدهشة وما يحمله الأدب في نفسه من صفات تدعو إلى الإعجاب، فكان بعض ذلك الأدب حاملاً لقيم الباطل والانحراف والشر. وارتبط كثير من البيان بالكهانة والسحر، وكانت زمزمة الكاهن وجهًا من أوجه ذلك... إلخ.

ولما جاء الإسلام صحّح هذه العلاقة؛ علاقة الأدب بالحضارة، فاستنكر رسول الله ﷺ سجع الكهان لما يحمله من قيم الباطل وما يسقطه من أهل البيان من الحق، ونعى القرآن الكريم على فئة من أهل البيان زخرف القول، وجعله مرتبطًا بالشياطين، فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۞ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾(الأنعام:١١٢-١١٣).

وقد أسس الإسلام قولاً وفعلاً أدب الحضارة،

hiramagazine.com

أ.د. حسن الأمراني*

من حضارة الأدب
إلى أدب الحضارة

هل أدركت الحيرةُ الأدب حقًّا في عصر العلم -كما يرى عثمان نُوَيه- وهل فقَد الأدب رسالته أمام هذه الثورات العلمية الهائلة التي تكاد تُذهِل الإنسان عن نفسه؟ أم أن الإنسان اليوم صار بحاجة أكثر إلى ظل يأوي إليه من لأواء المدينة وهاجِرتها؟ وهل تَوقّف الأدب عن رسالته في الحضارات السابقة، وهي حضارات بلغت ما بلغت من الرقي الذي يكاد يقف الإنسان اليوم في نهاية القرن العشرين من منجزاته مذهولاً حتى يتوقف عن رسالته اليوم؟ ويحدثنا القرآن الكريم عن حضارات سالفة بلغت من الآثار والقوة والرسوخ ما لم نبلغه، فقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي

اشتدّت الحاجة الآن ووجبتْ. فنحن بحاجة الآن إلى منهاج حقيقي نراه في تجربة رسول الله ﷺ صحيحًا، قابلاً لأن يُستَنبط منه الاستنباط الفقهيُّ باطمئنان.

هل يمكن اليوم كتابة "السيرة السنّة"؟

هل يمكن اليوم كتابة "السيرة السنّة"؟ أزعم أن "نَعَمْ".. وقد كانت محاولات للأفراد وللمؤسسات؛ ويعرف الجميع جهود الدكتور أكرم ضياء العمري، وجهود إبراهيم العلي، وجهود الدكتور ناصر الدين الألباني وغير هؤلاء.. ولكنها جهود حتى الساعة لم تسر وفق المنهج العلمي الدقيق والرؤية الشاملة للهدف من السيرة جملة: أي لماذا نُعيد كتابة السيرة أساسًا؟

فالسيرة الآن -في الصحيحين وفي غير الصحيحين- تحتاج إلى استخلاصٍ لا علاقة له بالأبواب والموضوعات كما هي الآن في الصحيحين، بل على القارئ أن يعود إلى كل نص ليستخلص ما يتعلق بشخصية أو بحادثة أو بفعل أو بقول، ويربطه كقطعة صغيرة مع قطع أخرى لتلتقي في النهاية -بعد جهود كبيرة من الجمع والتصنيف والتوثيق والتحقيق-ولنحصل في النهاية على مادة كبيرة فيها الأمور الكبيرة وفيها الدقائق والجزئيات، ولكن تحتاج إلى أن تُنسّق بدقة.

ويُسهم في العملية متخصّصون في هذه العلوم أساسًا، في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف وفي السيرة النبوية؛ وإذا قلت السيرة، دخل معنا أهل التاريخ، لا سيما الذين يهتمّون بالسيرة. لكن نحن بالدرجة الأولى تعنينا قصّة رسول الله ﷺ؛ كل ما كُتب فيها بأشكال مختلفة يُسْتخلص منه ما له علاقة ثم يخضع لمنهج أهل الحديث، يعني إذا كان له سندٌ فالسند يدرس فنُخرّج الحديث ونرتّب رُتبَته، وإذا لم يكن له سندٌ فكيف يُتعامل معه؟ وهل يوجد ما يُعضّده أم لا؟.. إلخ.

ولكن الجهود تتكامل وتتضافر من قِبَل أهل القرآن وأهل الحديث وأهل السيرة، وأقول "أهل السيرة" مجازًا، وإلا فأهل السُّنة هم أهلُ السِّيرة، وأهْلُ السيرة هم أهل السُّنة؛ فالسنةُ الموجودةُ هي نفسُها السيرةُ معزولة عن الزمن، والسيرة الموجودة هي نفسها السُّنةُ معزولةً عن الموضوعات، لكن لم تُعَدَّ السيرة بنفس الطريقة التي أعدت بها مادة السنة، فاختلفتا.

هذه المصادر بصفة عامة هي المراحل الأساسية: مرحلة الجمع والتوثيق وتكون طويلة وكثيرة ومهمة، لأنه لابد من حصر المدونة وحصر الكتب التي تدخل ويُرجع إليها.. وستواجهنا عَقبةُ المخطوطات ولا شكّ، ولكن على الأقل نُعِدُّ المشروع انطلاقًا من المطبوع ونرتّبُ الأمر للمخطوط، ونُعِدُّ العدة لمسألة ما أسمّيه بـ"معضلة النص"، وهي قضية كبيرة ليستْ في السيرة وحدها، بل في مختلف العلوم الإسلامية.

أما "إشكالُ النص"، أي الإعداد العلميُّ للنصّ، فحتّى الساعة لم يَتَيَسَّر، ونسأل الله تيسير أسبابه، فالجمع فالتوثيق، ثم التحقيق والتدقيق للجزء والكليات والجزئيات، ثم التصنيف والتأليف.. هذه المراحل واضحةٌ كبيرة.

خاتمة القول

يجب الشروع في مشروع "السيرة السُّنَّة".. أولاً نحتاج إلى بَلْوَرة لهذا المشروع بوضوح، ثم إننا نحتاج إلى رجال يحترقون غَيْرةً على الأمة وعلى واقعها وعلى مستقبلها.. ونحتاج إلى رجال يحملون الأمانة إلى رساليّين حقًّا، إلى أتْباع محمد ﷺ حقًّا؛ ليس الذين يزخرفون الكلام في محمد ﷺ ويدعُون أيديهم في الماء، بل نحن بحاجة إلى أتباع الرسول ﷺ حقًّا.

فهذا المشروع يمكن أن يُبَلْوَر بِيُسْرٍ -إن شاء الله تعالى- إن وُجد مَن ينهض بهذا الأمر، وما أحسن أن تتخصص كلُّ جهة في قضية من قضايا الأمة لتستطيع النهوض بها ولا تضيّع الوقت. وذلك التخصص مبنيٌّ على التكامل مع تخصصات أخرى في قضايا الأمة في جهات أخرى. ولابد من هيئة للإشراف على هذا المشروع تكون واعية وصابرة ومحتسبة ومستعدة للتضحية... إلى غير ذلك، ولابد من جمهرة من الباحثين الصابرين العلماء القادرين بإذن الله ﷻ. ■

(*) الأمين العام لمؤسسة البحوث والدرسات العلمية (مبدع) / المغرب.

hiramagazine.com

الأول. إذن لِمَ كان الاهتمام بالسنة أكثر من الاهتمام بالسيرة؟ السبب هو "حاجة الأمة"؛ فالأمة والعقل دائمًا يقتضيان الكياسة، والكياسة تقتضي أن تستجيب الأمة للحاجات الضاغطة بأي أمر.. والأمة -بالعوارض والنوازل التي تَنزل- تحتاج إلى الاجتهادات التي بها تواجه ذلك؛ فما كان تابعًا للقضايا الجديدة النازلة بالأمة في توسُّعها وتنوع أجناسها، وقع الاعتناءُ به والاجتهادُ فيه، لإظهار الإسلام في صُوَره النقية النموذجية الكاملة الموضوعية.

هذه "النظرة الأفقية" للدين، كانت حاجةُ الأمة إليها كبيرة جدًّا، وتزداد كل يوم في تفاصيلها وجزئياتها.. فكانت تحتاج إلى السنّة في القياس عليها لاستنباط الأحكام التي بها تعالج مشكلاتها الجديدة النازلة. استجابت الأمة لهذا الأمر، فرتّبت له عبر القرون الثلاثة، وأنهت قصة الغربلة الشاملة للسنة، والقرونُ الثلاثة تعني منتصف المائة الثالثة.. ثم استمر الأمر بعدُ على نفس الاهتمام، لكن بالنسبة للسيرة لم يستمر بهذا الشكل أبدًا.

٢-انعدام الداعي: الأمر الآخر في هذه النقطة (أي الأسباب التي جعلت الأمة لا تكتب السيرة بهذا الشكل)، هو انعدام الداعي من هاته القرون السابقة أو ضعفُه، وهو السبب الأهم؛ فالقرون السابقة أي ما قبل القرنين الأخيرين -لأن هذين الأخيرين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين هما من صميم ما يجري- حيث ما زلنا في المرحلة التاريخية المتشابهة، بمعنى أن الأمة إذ ذاك كانت تعيش الإسلام فيه خُروق، وفيه بدَعٌ، وفيه أمورٌ، أي ما عادتْ تَسِير السيرَ الطبيعيّ، وبه أشكالٌ من المخالفات، وبه أشكالٌ من المعاصي ومن الفسوق في التديُّن وليس في "الدين"، لأن هذا الأخيرَ دائمًا ثابتٌ مستقر، ولكن تديّن الناس لم يبق كما كان أول مرة يكاد يُطابق النص. فحدثت أشكالٌ من المعاصي والفسوق، ولكن بقيت المرجعيَّة هي المرجعيَّة، والناسُ يعترفون في النهاية أن القرآن والسنة وما استُنبط منهما إليه يرجعون في شؤونهم العامة عند الاختصام.

لكن في هذين القرنين الأخيرين بدأنا نعيش وضعًا جديدًا، أي إننا نعيش "التنكُّر للمرجعية".. الآن

حاجة البشرية اليوم إلى نموذج "ابن آدم" المثالي الكامل هي حاجةٌ قوية جدًّا، لأن "صورة المسلم" لم تعدْ موجودة على الوجه الصحيح في الكرة الأرضية. والحاجة إلى السيرة النبوية الصحيحة الشاملة الكاملة، حاجة قوية لتحُلّ هذا الإشكال للبشرية اليوم؛ لتحلَّه عندنا نحن المسلمين أولاً، ثم لتحلّه عند غيرنا.

حراء

-ببساطة- هل وزارة التعليم عندنا -مثلاً- تستشير الكتاب والسنة؟! أو تستشير الإسلام؟! وهل وزارة الإعلام تستشير الإسلام؟ وهل وزارة التجهيز والفلاحة تستشير الإسلام؟ وأيُّ وزارة كانت، هل تفعل شيئًا من هذا؟ بل لها استشارات قانونية وتسير وفق قوانين، ولكن هذه القوانين مستقاة من الغرب أساسًا.. إذن نحن لنا مرجعية غير إسلامية في حقيقتها، والأمر في غاية الوضوح.

حين حدث هذا، بدأ الغيورون على حال هذه الأمة يتلمسون الطريق، وهذا ما يقف وراء ظهور بعض المحاولات في القرن الأخير لتفسير القرآن الكريم وفق ترتيب النزول كحال محمد عزّة دزْوزة، وحبنَّكة الميداني وحال غيرهما.. سواء عند السنة أو عند الشيعة فهناك محاولات تتلمَّسُ الطريق نحو القصة الأمّ، قصة رسول الله ﷺ؛ قصة كيف أخرج الناسَ من الظلمات إلى النور؟ يعني كيف كان الأمر ليُستَهدى به؟ لأن تلك السيرةَ صنعَها القرآن، وصنعها تنزُّل القرآن خطوة خطوة.

إن انعدام هذا الداعي جعل القرون السابقة لا تلتمس هذا، فكانت حاجة التبرك بالسيرة أحيانًا، والتأسي بالسيرة أحيانًا، وللدلائل والشمائل أحيانًا... إلخ. ولكن الحاجة إلى أن نُعيد البناء من الأساس لم تَأْتِ من قبل، والذين أحسّوا بالخطر أو ببعض الخطر اهتمُّوا مع ذلك بفقه السيرة في وقْت مبكّر، وما زلتُ أذكر جهدَ ابن القيّم في "زاد المعاد" في مسألة فقه السيرة الذي عنده، فتلك الوقفات عنده في غاية الأهمية، لكن لم يصل الأمر في زمانه إلى ما وصل إليه في زماننا، ولذلك

hiramagazine.com

المغازي وفي الكتب المختلفة للسيرة.. ولكن بهذا المعنى الذي أتحدث عنه لا نَجِدُها؛ بمعنى أن كُلَّ ما فيها صحيح، ولا تَقْتَصر على جانب بعينه من أمر رسول الله ﷺ وسُننه وأيامه، بل تشمل كل ذلك منذ وُلد.. وذلك يدخل في منهاج الإعداد، حيث أُعِدَّ ثلثي الوقت ليُنْجز ويُنفِّذ في ثُلُث الوقت، أي أربعون سنة من الإعداد، وعشرون سنة من الإنجاز.

توجد نصوص كثيرة صحيحة صريحة بأن عمر النبي ﷺ ستّون سنة، أربعون منها قبل البعثة، وعشرون بعدها، عشرة بمكة، وعشرة بالمدينة. وهناك المعروف والمشهور، وهو ثلاث وستون سنة على أساس أن الثلاث هي مرحلة الدعوة السرّية، وعشْرٌ للصَّدْع بالدعوة بمكة، وعشْرٌ للصَّدْع بالدعوة بالمدينة.

إذن هذا النموذج بكامله -من أوَّله إلى آخره- هو قصةٌ. ولنا نموذج في القَصص القرآني، ومنها قصة موسى عليه السلام في سورة القصص؛ لقد بدأت بحديث صُنْع الله له على عينه وهو في بطن أمّه في وقت مبكّر، وسورة طه اهتمت بالقسم الثاني، وسورة الأعراف بنهاية القصة. هذه السور بهذا الترتيب كافية لرؤية قصة موسى عليه السلام منذ وُلد إلى أنْ صار إلى ما صار إليه مع قومه.

فسيرة صحيحة شاملة كاملة لرسول الله ﷺ لا نملكها اليوم، والسنة الموجودة الآن في الكتب والتي تحتاج هي نفسها إلى أن يجتهد أهل الحديث وعلماؤه ويؤسّسوا مجمعًا حديثيًّا عالميًّا كمجمع الفقه، لإخراج مدونة الحديث الصحيح مرتّبة مصنّفة.. وكل الكتب تدخل في الحساب بعد غرْبلتها عبْر شورى علمية من ذوي الاختصاص في كتاب جامع، وتبقى الكتب القديمة في محلّها، ولا يَستغني عنها ذوو الاختصاص، لكن الأمة في مرحلة الاستئناف الحضاري والعَوْدة إلى التاريخ في حاجة إلى أن تواجه شيئًا واحدًا واضحًا قد خرج من أيدي العلماء بالشورى العلميَّة.

هذه السنة الموجودة الآن في الصحيحين وفي غيرهما إذا قورنت مع السيرة، نجد هناك النظرة الأُفُقية للدين، والنظرة العَمُودية، والنظرة الموضوعيَّة، والنظرة الزمنيَّة التاريخية.. إن القرآن نزل أول ما نزل، منجَّمًا مفرَّقًا: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾(الإسراء:١٠٦)، ثم جُمع في النهاية في كتابٍ على الصورة التي هو عليها في المصحف الآن، وفي العرضَتَيْن الأخيرتين في رمضان الأخير من حياة الرسول ﷺ، الصورةُ التي بقي عليها الكتاب كما هو، كانت لها صورة أخرى في علاقة النصّ القرآني بالتاريخ وبالمكان والزمان.

المنهجُ الذي اختاره الله ﷻ ليُجّل به الوحي في الواقع هو مقتضى ترتيب نزول القرآن الكريم، ولم يبق لنا بغاية الدقة كما كان أول مرة، لأن تلك الصورة بذلك الشكل لا يمكن أن تُلْزَم بها الأمةُ لتغيُّر الزمان والمكان والإنسان، فيحتاج الأمر إلى اجتهاد، لكن المعالم الكبرى مهمةٌ جدًّا وهي باقية.. القرآن -وهو ينزل على نبيه- ذلك البيان، حين عُزل عن التاريخ صار سنّة، وجُمعت النصوص وصُنّفت، وصارت بعدُ مُرتبةً على الموضوعات، وكُلٌّ رتَّبها على طريقته.. وعلى كُلٍّ، فالترتيب الذي صار مشهورًا بعد ذلك هو الترتيبُ حسب الموضوعات، فإذا أردتَ أن تعرف الإسلام عن طريق السنّة تجد هذه المواضيع أمامك.. لكن الترتيب الذي كان لتلك السُّنّة نَفْسِها والرسول ﷺ ينطقُ بها أو يَفعلها أو يُقرّها، كان ينبغي على ذلك الترتيب أن يكون في السِّيرة، ولكنه بتلك الصورة الصحيحة الشاملة الكاملة لم يكُن.. وهو ما أَقْصِدُه بـ"السِّيرة السُّنة"، أي السيرة التي تُمَثِّل السنة، لكن بصورة زمنيَّة في صورة مرتبطة بالمكان والزمان، وفي شِقٍّ تاريخيٍّ دقيق؛ كُلُّ حادثة بعد التي تليها بالضبط.. أيُّ نصّ من النصوص الواردة، ينبغي أن نلتمس له بدقة، مكانه في النسق التاريخي لزمن السيرة، لنحصل في النهاية على هذه القصة الكاملة النموذجية لأكمل نبي وأعظم رسول ﷺ.

لِمَ لَمْ تُكتب هذه "السيرة السنّة" قبل؟

هناك أسباب عدة لعدم الاهتمام بـ"السيرة السنة" من قِبَل الأمة، ومنها:

١-انفصال السيرة عن السنة: واضح مما سبق أنها في أصل الانطلاق انطلقت منفصلة عن السنة، وسارت متقاربة متكاملة، لكن ليست هي هي، وهذا هو الأمر

hiramagazine.com

١- الحاجة العامة للبشرية إلى النموذج الكامل في "الآدمية"، ليس في "الإنسانية" بل في الآدمية، لأن أغلب ذكر الإنسان في القرآن يأتي في سياق الشَّرّ، وفي سياق الذّم. والحالاتُ التي ذكر فيها في سياق المدح قليلة جدًّا، فكلنا إذن أبناء آدم النبي عليه السلام.

وحاجة البشرية اليوم إلى نموذج "ابن آدم" المثالي الكامل هي حاجةٌ قوية جدًّا، لأن "صورة المسلم" لم تعدْ موجودة على الوجه الصحيح في الكرة الأرضية، و"صورة غير المسلم" أشكالٌ من التشوه للآدمية. فالبشرية تتخبط، والمسؤولون الأوائل هم مَن يُسمَّون بـ"المسلمين"، لأنهم حَجَبوا عن الناس الحقَّ بأشكال متعددة من الحجب، سواء في الفهم السيئ أم في الممارسة السيئة، أم في التديّن البالغ السوء. إنهم منعوا الناس من رؤية الحق في الصورة البهية النقية.

والحاجة إلى السيرة النبوية الصحيحة الشاملة الكاملة، حاجة قوية لتحُلّ هذا الإشكال للبشرية اليوم؛ لتحلَّه عندنا نحن المسلمين أولاً، ثم لتحلّه عند غيرنا.

٢- حاجة الأمة إلى المنهاج الأمثل للخروج من الظلمات إلى النور، ولإخراج الناس من الظلمات إلى النور. ونحن ما زلنا لم نستطع الخروج، ويوم نخرج نستطيع الإخراج بإذن الله تعالى. السيرة فيها السِّرّ، أي السيرة النبوية الصحيحة الكاملة الشاملة.

٣- حاجة العلماء إلى سيرة صحيحة شاملة كاملة واضحة يروونها.

لقد نزل كتاب الله عز وجل وجُمع وصار في مصحف، ثم جُمعت سنّة رسول الله ﷺ على مراحل، ثم بدأ جَمْعُ السيرة، قصة رسول الله ﷺ.

فالعناية تدرّجت حسب هذا السُّلَّم؛ العنايةُ بكتاب الله عز وجل أولاً له الصدارة، ولذلك بين أيدينا كتاب الله عز وجل بالتواتر اللفظي. ثم هناك بعد ذلك العنايةُ بسنّة رسول الله ﷺ، ومن بعدها العناية بسيرته ﷺ ولم تَحْظ بمستوى العناية التي حَظِيت بها سنّته ﷺ، فليس بين أيدينا في موضوع السيرة ما يشبه صحيحَي البخاري ومسلم. فالحاجة العلمية إلى جانب الحاجة الحضارية لهذه الأمة، إلى جانب الحاجة العامة للبشرية، كُلُّها من

إننا نحتاج إلى رجال يحترقون غَيْرةً على الأمة وعلى واقعها وعلى مستقبلها.. ونحتاج إلى رجال يحملون الأمانة إلى رساليِّين حقًّا، إلى أتْباع محمد ﷺ حقًّا؛ ليس الذين يزخْرفون الكلام في محمد ﷺ ويدعُون أيديهم في الماء، بل نحن بحاجة إلى أتباع الرسول ﷺ حقًّا.

حراء

الموجبات التي تدفع أهلَ الغَيْرة دفعًا إلى أن ينخرطوا في المشروع انخراطًا كلّيًّا لإنجاز "السِّيرة السُّنة".

ما المقصود بـ"السيرة السنة"؟

السيرة فِعْلَةٌ من "السيْر" واسم هيئة؛ أي الكيفية التي تمّ عليها السَّيْر، أي الحالة التي كان عليها السيْر، وهي هاهنا بالنسبة للرسول ﷺ قِصَّتُه كقصة بقية الأنبياء. ونحن عندما نلتمِسُ ما أسمّيه بـ"الهدى المنهاجي" في هذا الدين، نلتمسه أولاً في القصص القرآني، أي في سِيَر ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾(الأنعام:٩٠)، أي سِيَر الرسل والأنبياء. فهناك منهاجُ إخراج الناس من الظلمات إلى النور كامن، وقد اقتدى به الرسول ﷺ كما أمره الله عز وجل في عدة مناسبات واضحة جدًّا:

- في مناسبة فتح مكة قال كما يقول يوسف عليه السلام: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ﴾(يوسف:٩٢).
- ثم في مناسبة بيعة العقبة: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا﴾(الأعراف:١٥٥).

في مناسبات متعددة ائتسى بما قُصَّ عليه في القصص القرآني: ﴿وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾(هود:١٢٠).

ولكن القصة الأكبر والأضخم، والتي تُمثّل النموذج الأكبر للتجربة الأعظم؛ التجربةِ الخاتمة الكاملة الشاملة، التجربة التي لم تقتصر على مرحلة بعينها من حياة الإنسان الفرد أو حياة الإنسان الجماعة. ولكن تجربةٌ كاملةٌ لإخراج أمة بكاملها من الظلمات إلى النور، وتأسيس أساسٍ للبشرية حتى قيام الساعة، تسترشدُ به وتستهدي به.. هذه التجربة أين نجدها موثقة؟

نجدها في سيرة ابن إسحاق، وابن هشام، في

hiramagazine.com

أ.د. الشاهد البوشيخي*

حاجة الأمة إلى "السيرة السنّة"

لم تكن الأمة في ظرف من ظروفها التي مرت، بحاجة إلى ما أسْمَيْتُه بـ"السيرة السُّنَّة" كما هي بحاجة إليه اليوم، لأنها وصلت في علاقتها بالإسلام إلى حد خرج الإسلام فيها من مرجعية الأمة من الناحية الواقعية، وعَوَّضت المرجعيةُ الأوروبية البشريةُ مرجعيةَ الوحي في جميع شؤون الأمة تقريبًا. و"الأمة" نَفْسُها إنما نَنْطق بها اليوم مجازًا، وإلا فلا "أَمَّ-يُؤَمُّ" ولا إمام يَؤمّ، ولا وجود للجَمْع كله مأمومًا من إمام يَؤمّ قصدًا موحدًا يقوم على الوحي. هذا لا وجود له في العالم الإسلامي اليوم، وإنما قِطَعُ غيارٍ متناثرة في أماكن شتى من العالم، وبقايا من هذه الأمة.

لكن لا تزال طائفةٌ قائمة بالحق، لن تزول ولن تنتهي حتى تقوم الساعة... والحقُّ حجتُه باقية في الأرض، قد يضعف ولكنه لا يزول ولن يزول.

ما يحدث الآن هو بمثابة سماد للحق وبمثابة تقوية لهذا الحق، حيث جعله ينطلق على أساس متين ويعيد بناء الإنسان بناء جديدًا، يشابه من جوانب متعددةٍ المسلمَ الأول في الجيل الراشد في خَيْر القرون. ولكن مسلمي اليوم لن يبلغوا ذلك اليوم إلا بعد بلاء عظيم يُمحَّصون فيه تمحيصًا بأشكال مختلفة من البلاء، ولكن الخير كل الخير في ذلك للأفراد وللأمة في النهاية.

إن ما نسميه بـ"السيرة النبوية" فيه السِّرُّ، ولكنه لم يُعَدَّ الإعدادَ العلميَّ قبْلُ ليَحل الإشكال بسرعة بَعدُ. ومن ثم يمكن تلخيص الموجبات اليوم باختصار في ثلاثة:

محمد صديق*

صوت مؤمن

ربما يعاني البعض من علة وجوده في بيئة غير صالحة، أو ضمن جو تنتشر فيه أوبئة الفساد والجهل، فيتعذر بهذه الأمور ويبرر بها فساده وانجرافه مع التيار، وينتظر صلاح الجماعة حتى يصلح نفسه ويلقي اللوم على البيئة التي أكسبته المرض.

لكن المجتمع هو نتاج أفراد متكررين في المضمون وهو نتيجة تشابههم في التفكير والسلوك، وإذا حدث اختلاف في هذا الاجتماع فإن البيئة تميل للتغير والتبدل، بحكم أن الجزء يؤثر في المجموع مهما كان التأثير بطيئًا.

ودعا النبي ﷺ إلى عدم الانجرار وراء "جهالة المجتمع"، فعن حذيفة ﷺ قال: قال رسول ﷺ: "لا تكونوا إمّعة تقولون إنْ أحسنَ الناسُ أحسنّا وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطّنوا أنفسكم إنْ أحسنَ الناسُ أن تُحسنِوا وإن أساؤوا فلا تظلموا" (رواه الترمذي). فالإصلاح يحتاج لمبادرة ذاتية عنوانها "عدم التقليد الأعمى".

ورجال الإصلاح على مر التاريخ، كانوا أفرادًا في بيئة معلولة وكانوا أجزاء من كلٍّ مريض، لكنهم بدأوا بتغيير ذاتهم، حتى انتشر التغيير في الكلّ المترابط مع بعضه بروابط مادية واجتماعية ومعنوية.

وفي القرآن الكريم يحضر مثال قوي عن هذه الحالة التي ذكرتُها، إنه مؤمن آل فرعون الذي آلمه تصلّب عقول قومه، وأوجعه صَمْتُهم عن الفساد الذي يرزحون تحت ظلاله.. لكنه لم يتأثر ببيئته الفاسدة ولم يجعل لجو الجهل منفذًا إلى تفكيره وعقله، بل انبرى يحاورهم بالحكمة والموعظة الحسنة، فدعاهم إلى تحكيم منطق العقل قائلاً: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾(غافر:٢٨)، وذكّرهم بماضي أيامهم: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ ۞ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾(غافر:٣٠-٣١)، وخوّفهم من عذاب الله في مستقبل أيامهم: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ۞ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾(غافر:٣٢-٣٣).

إن هذا الرجل دليل واضح على أن الفرد مسؤول عن ذاته وإصلاحها، كما هو مسؤول عن الأمر بالخير والنهي عن الشر، وأنه لا يجوز لإنسان أن يلقي بأخطائه على الآخرين، وأن لا ينتظر الإصلاح على طبق من ذهب، بل عليه أن يسعى إليه رغم كل الصعوبات والظروف غير الصالحة.

ومتى تكاثرت أصوات الإصلاح وعمَّ سلوك الإصلاح وأفعال المصلحين بين الناس، فإن هذا المجتمع يميل نحوهم وتبدأ الكفة بالرجحان لصالحهم.

إن "التدافع" الذي هو من سنن الله في أرضه، معناه تصارع الأضداد حتى يبقى الأجدر بالبقاء، ومتى خفَت صوت الإصلاح وانقلب إلى صوت داخلي ذاتي، فإن ضده الباطل سيعلو ويغلب، لكن متى خرج الإصلاح من قوقعته الذاتية وبدأ يمشي في الأرض سلوكًا رائعًا وقولاً حسنًا، فإن الناس تتأثر به، ذلك أن الإصلاح فعل متعد. ■

(*) كاتب وباحث في التربية الإسلامية / سوريا.

وذلك لعدم وجود تلك الميزات.

إن من صفات "المسكن" أيضًا التي يمكن أن يتميز بها عن "البيت"، هو كونه متسعًا يفي بالوظائف والحاجات المتعددة لساكنيه. فقد ذكر النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري: "من سعادة المرء المسكن الواسع"، فكأن صفة الاتساع هي صفة لصيقة بالمسكن ولا يشترط وجودها في البيت، وهو ما ينطبق على مساحات وأبعاد غرفِ ومساكنِ النمل مقارنةً بأحجام النمل الصغيرة جدًّا.

كما أن البيت يمكن أن يكون فقط من حجرة واحدة، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾(آل عمران:٩٦)؛ فوصف الكعبة المشرفة -والتي تتكون من حجرة واحدة- بأنها بيت، أما المسكن يتميز عن البيت بتعدد الحجرات وتنوعها من ناحية الحجم والشكل والوظيفة، إلى جانب توفر وسائل الاتصال بين هذه الحجرات والتي تمثلت في الأنفاق الرأسية والأفقية بمساكن النمل.

لقد ربط القرآن الكريم بين وجود الجنات والحدائق وذكرِ "المسكن"، حيث يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾(سبأ:١٥)، وكأن وجود الحديقة صفة تميز المسكن عن البيت. وهو ما تم اكتشافه في مساكن النمل تحت الأرض، حيث تخصيص غرف متعددة ومتسعة تستعمل لاستزراع الفطر وهو الغذاء الرئيسي للنمل من نوع قاطعات الأشجار. وقد أطلقت كل الدراسات والأبحاث على كل تلك الغرف اسم "Gardens"، أي "حدائق" باللغة العربية.

كما أن ذكر المساكن بصيغة الجمع في الآية الكريمة: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾(النمل:١٨) لا بصيغة الأفراد فيه إعجاز وسبق قرآني لعدم إمكانية رؤية تلك المساكن والغرف المتعددة تحت الأرض وقت نزول القرآن الكريم، ولكن الدراسات الحديثة أثبتت أنها تصل في

الغرف والأنفاق الموجودة تحت سطح الأرض للنمل.

بعض الحالات إلى الآلاف من الغرف والمساكن.

أما إذا تأملنا قول النملة في الآية الكريمة: ﴿لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾(النمل:١٨)، يتضح من قولها الثقة المتناهية في قوة ومتانة تلك المساكن، حيث إن النملة كانت واثقة أن بدخولها هي وباقي النمل لتلك المساكن، لن يستطيع سليمان وجنوده أن يدمروها، وبالتالي فلن تتحطم تلك النملات.

لقد أوضحت الدراسات والأبحاث الحديثة أيضًا، أن أشكال الغرف والأنفاق تتراوح ما بين الشكل الكروي أو البيضاوي لكليهما، ومن المعروف من الناحية الهندسية أن الأشكال البيضاوية والدائرية المقطع والكروية، تتحمل الضغوط أو الأحمال من فوقها أكثر من الغرف أو الأنفاق ذات الأسقف المستوية، وهو مما يفسر ثقة النملة في متانة وقوة مسكنها، فهي بما أودع الله فيها من غريزة فطرية سليمة لاتخاذ أفضل الأشكال لمسكنها، ووجوده تحت الأرض، كانت مطمئنة لقوته ومتانته وعدم إمكانية تدميره فتتحطم هي بالتالي. ■

(*) كلية الآثار، جامعة القاهرة / مصر.

نقطة من القرية (العش) عند ٤ أمتار، تستخدم كمسكن شتوي لجميع أفراد النمل والفطر خلال فترة البَرْد.

فالنظام الحراري للمنطقة يجعل عاملات النمل تتجه إلى المسكن الشتوي في نهاية الخريف -مع بداية الفترة الباردة- لبناء حدائق جديدة من الفطر، كما تتجه نحو الغرف العلوية مع بداية الربيع لإنشاء الحدائق أيضًا لاستزراع الفطر.

أما عش النمل من نوع (Atta Leavigata)، فيتكون من تل ظاهر فوق سطح الأرض من التربة غير المتماسكة، به العديد من الفتحات والمداخل، وجزء غير ظاهر تحت سطح الأرض يحتوي على مساكن مختلفة الأحجام والأشكال ترتبط مع بعضها بشبكة من الأنفاق.

وقد وجد أن المساكن المخصصة كحدائق لاستزراع الفطريات بيضاوية الشكل، بينما غرف القمامة والفضلات على شكل مخروطي، ويمكن أن يكون شكل الغرف كرويًّا أيضًا.

وفي بعض الأعشاش يسيطر الشكل الكروي على الغرف مع وجود حوائط ملساء من الداخل، وربما في بعض الحالات على قاعدة المسكن. وقد وجدت غرف في عمق يصل إلى سبعة أمتار، وهو أكبر عمق تم تحديده لتلك النوعية من الأعشاش.

كما أن الأنفاق إما بيضاوية وإما دائرية المقطع، يتراوح ارتفاعها ما بين ٢,٩ سم إلى ٥,٥ سم. أما الأنفاق البيضاوية فعرضها يكون أكبر بأربع مرات من ارتفاعها، وأما الأنفاق الرئيسية تتميز بطولها لتعبر امتداد العش كي تتصل بالأنفاق الأخرى لتشكل نظامًا دائريًّا (الطريق الدائري).

لقد اهتمت بعض الدراسات بالتلال الترابية التي تعلو بعض أعشاش النمل من نوع (Atta)، وبتأثيرها على تهوية ومناخ تلك الأعشاش (القرى) تحتها. وبناء على دراسة أجريت على أحد تلال النمل بالأرجنتين من نوع (Atta Vollenweideri)، فقد لوحظ وجود ١٦٩ فتحة نفق موزعة بانتظام على سطح هذا التل الذي يرتفع مترًا واحدًا عن سطح الأرض ويساوي قطره ٣,١ مترًا.

وقد وجد أن الرياح السطحية، تندفع من خلال بعض الأنفاق المركزية للتل خلال فصل الصيف، لتهوية العش والمساكن الواقعة أسفل التل، وكذلك لخروج غاز ثاني أكسيد الكربون من داخل العش. كما لوحظ أن النمل يقوم بتغطية فتحات الأنفاق في التل بأبراج صغيرة (Turrets) كي تساعد على دخول الهواء إلى العش. كما أنه مع بداية فترة البَرْد في فصل الخريف، يقوم النمل بغلق حوالي ٩٠٪ من فتحات الأنفاق في التل لتجنب دخول الهواء البارد إلى العش.

كيف يذكر القرآن قرى ومساكن النمل

لقد تطابق ذكر مسمى "وادي النمل" مع ما تم اكتشافه من امتداد مستعمرات النمل إلى آلاف الكيلومترات في بعض المناطق، مما يجعل تسمية وادٍ باسم النمل مطابق للواقع لكبر مساحة الأودية بصفة عامة، وكِبر مساحة مستعمرات النمل التي تشغلها، إلى جانب أن كل مستعمرة عملاقة تتكون من مجموعة من الأعشاش (القرى)، والتي بينها ترابط واتصال.

كما أن إطلاق مسمى "قرية النمل" كما ورد في بعض الأحاديث النبوية الصحيحة، فيه سبق علمي أيضًا، حيث إن تعريف القرية كما ورد ببعض معاجم اللغة هو "ما تقاربت فيه الأبنية المتخذة للسكن"، وهو ما اتضح أيضًا من دراسات أعشاش النمل المقامة تحت سطح الأرض في أعماق مختلفة، والتي أوضح تقارب وتركز مساكن النمل بها في أعماق محددة، وبخاصة الثلاثة أمتار الأولى تحت سطح الأرض.

إن الدراسات الحديثة التي أجريت على التركيب والتصميم الداخلي لأعشاش النمل، بيّنت احتواء هذه الأعشاش على طرق رئيسية وفرعية وغرف متعددة الشكل والحجم والموقع، وبالتالي بيّنت وجود وظائف متعددة لتلك الغرف ما بين حدائق ومخازن وغرف للفضلات وغيرها، وكذلك تناسب عدد أفراد النمل مع حجم ومساحة كل عش، كما أوضحت بعضَ الأساليب لتهوية تلك المساكن في الصيف، وأبرزت وجود غرفة شتوية في الأسفل في فترات البرد، مما يجعل الوصف القرآني لها بـ"المساكن" هو في غاية الدقة، في حين وصف (القرآن الكريم) النحل والعناكب بأن لها بيوتًا،

hiramagazine.com

قرية النمل المنتظمة

اتضح من بعض الدراسات الحديثة أن كل مستعمرة من مستعمرات النمل تتكون من العديد من القرى (الأعشاش). هذه القرى مبنية تحت سطح الأرض، وفي بعض أنواع النمل (قاطعات الأشجار) يعلوها تل دائري صغير بارتفاع حوالي متر واحد في المتوسط. وقد أوضحت دراسات متعددة أنه يمكن وصول عدد المساكن في قرية من قرى النمل إلى الآلاف. هذا وقد قام العالِم البرازيلي "لويس كارلوس فورتي" بدراسة ثلاثة أنواع من الأعشاش والتي كانت أعداد المساكن فيها ١١٤٩ و١٥٦٧ و٧٨٦٤ مسكنًا بالترتيب، فوجد أن المساكن والغرف في هذه القرى تختلف في شكلها ووظيفتها وعمقها تحت الأرض.

كما أوضحت دراسة حديثة أخرى حول أعشاش (قرى) النمل، أن أبعاد القرية المتوسطة الحجم لنوع النمل قاطع الأشجار (Atta Texana)، هي ٤,٥ مترًا عرضًا، و٦ أمتار طولاً (أي بمساحة تعادل حوالي ٢٥ مترًا مربعًا)، كما أكدت الدراسة على التقارب والتركز الكبير لأعداد المساكن (الغرف) بجانب بعضها البعض، فمن بين ١٦٩ غرفة بالقرية (العش)، وجد حوالي ١٦١ غرفة ترتكز في الأمتار الثلاثة العلوية تحت سطح الأرض مباشرة.

وقد أوضحت دراسة أخرى حديثة أجريت بولاية فلوريدا بأمريكا على نوع (Camponotus Socius)، تركز وتقارب المساكن داخل العش بالقرب من المنطقة العلوية تحت سطح الأرض مباشرة، وهو ما يتأكد أيضًا عند دراسة العديد من قرى (أعشاش) النمل لأنواع مختلفة.

مساكن النمل المتينة

أوضحت الدراسات المتعددة الحديثة التي أجريت حول أعشاش وقرى النمل، أن هذه الأعشاش تتكون من جزأين أساسيين، الأول هو عدد من الأنفاق الأفقية والرأسية، والثاني هو مجموعة من الغرف (المساكن) الأفقية الوضع. كما أوضحت الدراسة أن عدد العاملات في العش يتناسب مع حجم العش ومساحة الغرف المنشأة، فعلى سبيل المثال، فإن مساحة الغرف بالنسبة لعش النمل من نوع (Camponotus Socius) يتراوح من ٢٦ إلى ٤٦٧ سم مربعًا، وكل زيادة بالنسبة لعدد عاملة واحدة يقابلها زيادة في مساحة الغرفة تساوي ٠,٧٠ سم مربعًا.

وقد أوضحت الدراسة أيضًا، أن شكل الغرف يختلف حسب حجمها وموضعها في أي مستوى من العمق، إذ إن الغرف القريبة من السطح ضيقة وأكثر طولاً، أما الغرف الأكثر عمقًا فتكون أكثر سمكًا واستدارة في شكلها الخارجي، أما ارتفاع الغرف فلا يختلف باختلاف المساحة، وهو يتراوح بين ١ سم و١,٥٠ سم، والمسافة بين الغرف تتراوح من ٢ سم إلى ١٤ سم، وتزداد قليلاً مع العمق.

أما التصميم المعماري لعش النمل من نوع (Pogno-myrmex Badius) تتميز فيه الأنفاق (الممرات أو الشوارع) بأنها بيضاوية المقطع وبقطر يتراوح من ٤ سم إلى ٦ سم، ويميل بزاوية مقدارها ١٥ إلى ٢٠ درجة بالقرب من السطح، ويزداد الميل إلى ٧٠ درجة عند عمق ٥٠ سم تحت سطح الأرض، ولا يزيد عدد الأنفاق عن أربعة في المستعمرات الكبيرة.

كما أوضحت دراسة على مستعمرة متوسطة الحجم للنمل من نوع (Atta Texana) بشمال ولاية لويزيانا الأمريكية، احتواءها على ١٦٩ غرفة (مسكن)، منها ٩٧ حديقة لاستزراع الفطر الذي يعتبر الغذاء الأساسي لتلك النملة قاطعة الأشجار، و٢٧ غرفة للعاملات (Dormancy)، و٤٥ غرفة للفضلات والقمامة، كما وجدت غرفة كبيرة نسبيًّا مقياسها مترًا واحدًا عرضًا ومثلها طولاً في أخفض

د. يحيى وزيري*

مساكن وقرى النمل

يعيش النمل ضمن مستعمرات يقوم ببنائها، وقد يتجاور عدد كبير من المستعمرات مكوّنًا واديًا للنمل كما سمّاه القرآن الكريم. إن حجم المستعمرات العملاقة (Super Colonies) التي تم قياسها في العديد من الدراسات العلمية، تغطي الآلاف من الكيلومترات المربعة في كاليفورنيا وأوروبا ونيوزيلاند وأستراليا. كما أن بعض المستعمرات الكبرى في الجنوب الشرقي من الولايات المتحدة الأمريكية، واليابان، تغطي أقل من ٢٥٠٠ متر مربع، وهي تضاهي حجم المستعمرات الموجودة بالأرجنتين. وقد أوضحت دراسة حديثة أن كثافة النمل يكون من ٢٥ إلى ٣٠ ألف نملة لكل متر مربع، وفي دراسة حديثة أخرى بالأرجنتين، تم دراسة مستعمرة تصل مساحتها إلى ٦٥٠ مترًا مربعًا، ويسكنها من ١ إلى ٥ مليون نملة، وتلك المستعمرة تحتوي على العديد من أعشاش (قرى) النمل المتجاورة، والتي تشكل كتلة (Cluster) متقاربة من الأعشاش.

وقد اقترحت تلك الدراسة أن يتم تعريف مستعمرة النمل على أنها مجموعة من الأعشاش (القرى)، والتي ينتقل النمل فيما بينها ويتشارك الطعام، وأن الترابط بين أعشاش النمل محدد مكانيًا، حيث لا تتحرك العاملات عبر الممرات أو تتشارك الطعام بين الأعشاش على مسافة أكثر من خمسين مترًا من محطة القياس المحددة بالدراسة.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

حياة الروح

إلهي..
خفّاقة رايتكَ فوق السواري..
نافِذ حُكمُك في الأشياء،
وسارٍ أمْرُك في الأكوان،
وبين يديك البشريةُ تـجثو،
وبنُورك تَحيا الأرواحُ،
وتقتات الأنفسُ.

* * *

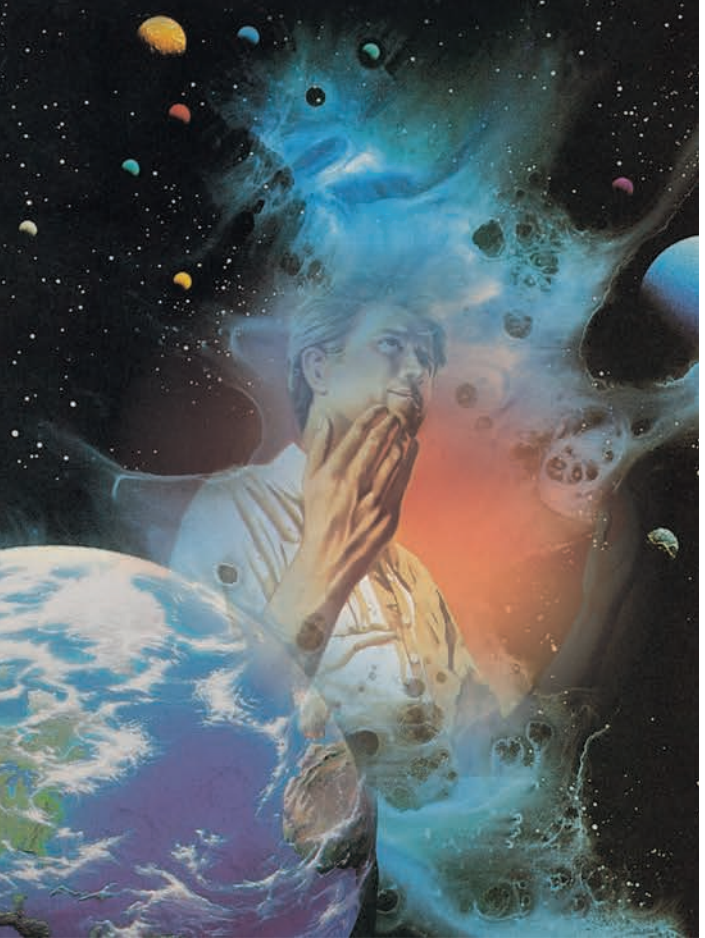

تترقب البشرية اليوم درب قافلة هؤلاء السعداء.. هؤلاء الذين أدركوا الحياة بكل جمالها.. وتمكنّوا من صياغة "حقيقة" ظلّوا يرعونها في أرواحهم بصبر كصبر المرجان، وهدوء كهدوئه حتى اختمرت.. وانطلقوا متّقدين شوقًا وحماسة لتلقيح بقاع الأرض كلها بهذه "الحقيقة".

هؤلاء الأخيار، في مسيرتهم السامية تلك، لا يقعون أسرى المقامات والمناصب، ولا يسقطون في هوة الشهرة والمجد، بل يبقون رمزًا للصدق والأمانة والشعور بالمسؤولية والفكر القويم والعفة والاستغناء. لا يترددون في محاسبة النفس لدى أي تقصير متأوّهين نادمين، أما إذا كان الأمر متعلقًا بأخطاء الآخرين، فإنهم يوسّعون دائرة المسامحة ويستخدمون حق العفو الممنوح لهم من الباري ﷻ إلى أبعد مدى.

هؤلاء حُماة القضية حرّاسُ المبدأ لا الثروة، وحرّاسُ المبدأ لا المال، يُعلون الحقيقة فوق المنفعة، ويؤثرون التواضع على التباهي الأجوف، ويرجّحون الرفق والحِلم والأناة على الشدة والغلظة والجفاء، ويوظّفون طاقاتهم كلها للارتقاء إلى الحياة الحقيقية في ذوات أنفسهم أولاً، ثم على صعيد البشرية ثانيًا، فيَكمُلون ويكمِّلون. ولا يتركون في أرواحهم مجالاً لكذب أو خداع، ويفرّون من الأنانية والكبر فرارَهم من العقارب والأفاعي.

وإذ يسير هؤلاء الأطهار نحو غاياتهم السامية ورؤاهم المعقولة مرفوعي الهامات منتصبي القامات، يعدّون كل مانع يعترض طريقَهم أو عقبة تقف قُبالتهم؛ وسائل تشدّ من عضدهم، وأسبابًا تُحيلهم فولاذًا خالصًا.. أولئك لن يسقطوا في مهاوي الإحباط، ولن يجد الانكسار إلى قلوبهم سبيلاً.

ويوم يَبلغون منزلاً يَفنَون فيه نفسًا وأنانية.. هناك.. وفي تلك اللحظة.. ومن ذلك المنزل ذاته ستنطلق هتافات أجيال الغد مهلِّلة بقدوم الربيع. ■

(*) الترجمة عن التركية: هيئة حراء للترجمة. نشر هذا المقال في مجلة سيزنتي التركية في العدد:٦٧، سنة ١٩٨٤.

الهوامش

(١) سُدُم جمْع سَديم وهي تجمّعات وسُحب فضائية تتكون من تكاثف ذرات الغاز والغبار في الفضاء وتستمد ضوءها من النجوم القريبة منها.

منه حُللاً بديعة الألوان، وتقدّمَه -بعد ذلك- للأنظار المشُوقة في معرض جميل أخّاذ.

تلك القلوبُ تشدّ الرّحال -مثل النحل- إلى أرجاء الأرض كلها، وتقيم عروشًا على أوراق الأزهار التي تلتقيها، وتهمس في آذانها بسرّ التحول إلى عسل خالص. وهي في مهمتها تلك تحبو على الأرض حينًا، وتحلّق في الأعالي حينًا آخر، يرافقها ألم عميق لا يَبرح صدرها، وصداع شديد يهز رأسها.. تَمضي أسابيعُ لا تذوق فيها طعم النوم، وشهورٌ لا تعرف فيها معنى الراحة، وأعوام لا تجد فيها فرصة للاسترخاء.. وهكذا تذهب أيامُ العمر وسِنُو الحياة بسرعة الريح واحدة تلو الأخرى، لكنها لا تتنبه إليها لاستغراقها في القيام بمهمتها. فهي دائمًا -على نهج جلال الدين الرومي- مثل "الفرجار"؛ جزءٌ منها مع "الخلق"، وجزء آخر مع "الحق" سبحانه. تمتلئ بالدهشة إزاء آثار الخالق وبدائعه التي يفرشها أمامنا كل حين، وتفيض بالانبهار مرة بعد أخرى، وتخرّ بين يديه سبحانه ساجدة خاشعة.. ثم تعود إلى "الخلق" بهذه المعاني الروحية السامية التي ذاقت حلاوتها وظلّت تنهل منها حتى ارتوت، لتحلّق مشحونة بشعور عميق بالمسؤولية.

إننا بفضل جيش القدسيّين هؤلاء حين يحرّكون "مكّوك الفكر" في اليوم بين الأرض والسماء مرارًا، مضيفين إلى أطلس قلوبهم في كل مرة ألوانًا قشيبة وأبعادًا جديدة.. بفضل هؤلاء نطهّر عقولَنا من الأفكار العفِنة التي عشعشت فيها، وننقّي قلوبنا من الطحالب التي غشيتها ونتذكر "إنسانيتنا" من جديد. إن سعداء "حضرة الحق" هؤلاء، نوافذهم وأبوابهم مشرَعة على مصاريعها إزاء آفاق الغيب اللانهائية متفاعلين معها.. يُصغُون إلى الطير في تغريده، ويئنّون مع الشجر في تسبيحه، يناجون النجوم في صفحة السماء، ويتبادلون الهموم مع البحار، ينصتون إلى النسائم في هبوبها، والأمطار في تهاطل قطراتها، والطيور في رفرفة أجنحتها، والأشجار في تساقط أوراقها.. فيجدونها تحمل إليهم رسائل من الحق ﷻ، فيسرعون إلى مناجاته بلسان قلوبهم، ويهتفون بملء فيهم: "هذا هو الطريق"،

تترقب البشرية اليوم درب قافلة هؤلاء السعداء.. هؤلاء الذين أدركوا الحياة بكل جمالها.. وتمكنّوا من صياغة "حقيقة" ظلّوا يرعونها في أرواحهم بصبر كصبر المرجان، وهدوء كهدوئه حتى اختمرت.. وانطلقوا متّقدين شوقًا وحماسة لتلقيح بقاع الأرض كلها بهذه "الحقيقة".

حراء

ويركضون فيه ركض جواد أصيل جرى مع فارسه المقدام حتى انبهرت أنفاسُه.

أولئك الذين بلغوا منزلة "السعداء" لدى "الحق" ﷻ، حمّالون لدى "الخلق" يتطوعون لحمل الهموم عنهم، وأطبّاءُ رحماء يعيشون آلام الأمة في قرارة نفوسهم، ورموز للتسليم إلى الله سبحانه.. رموز يكتشفون اللذةَ في الألم، والسعادةَ في المكابدة.

أجل، إن كل شيء في هذا الكون الفسيح الذي يعجز العقل عن تصور بدايته ونهايته، من وميض البرق إلى هزيم الرعد، ومن لألاء الشمس بأبهى الألوان إلى رقة النسيم ونعومته.. إن كل شيء يلفّ أفكارَهم بأذرعه النورانية المشرقة، فيغدو الربيعُ بأزهاره العطرة، والصيفُ بفواكهه اليانعة "موائدَ فكرية" بين أيديهم. فيرون فيما تأمّلوه فأدركوا حقيقته، وفيما ذاقوه فعرفوا جوهره أثارًا وملامح من "سلطان الجمال"، ويرتعشون بهمسات منه سبحانه. ففي أفق فكرهم الذي استحال عرفانًا بالله محضًا، يشدو النظام السائد في كل مكان بلسانه الخاص أعذبَ المعاني، وتتعانق الأشعة مع شتى الألوان، وتحوم الروح حول هذا الفضل حوم الفراش حول النور. ويأتي حينٌ تغدو فيه النجومُ ذراتِ غبار تحت أقدامهم، ويصبح الغبار الذي تحت أقدامهم ذراتِ سُدُم نجمية[1].

وبفضل الجِنان التي أقاموها في قلوبهم المصطبِغة بالخلود ،لا تخمُد جذوة حماسهم ولا تنطفئ شعلة شوقهم، ولا يتراجعون عن الدرب جرّاء ما يَلقون فيه من عناء. ففي كل صباح ومع طلوع الشمس يشرقون علينا بأمل نديّ وشوق جديد، ويُهدون قلوبنا معاني نادرة من عوالم الماوراء.

مكابدة الفكر

إن الجميع يفتش اليوم باحثًا عن وصْفات ناجعة وخُطط فاعلة تقوم عليها المعمورةُ في المستقبل. ونحن -بدورنا- سنضرب بريشتنا على أوتار قلوبنا مرة أخرى لنبعث بأنّاتنا المثقَلة بالهموم، المؤرَّقة بالآلام، منبّهين إلى "مكابدة الفكر". ولا أدري هل سيكون لهذا التنبيه تأثير في القلوب الخالية من الهمّ، أو الرؤوس التي لم تُعانِ صداع الفكر وضرباته المتوالية قط، أو النفوس التي أَلِفت الراحة واستكانت إلى الاسترخاء.. لكن مع ذلك نقول إن سعادة إنساننا الحقيقية، لن تتأتّى إلا إذا سلّم نفسه إلى رؤى مشرقة وأفكار نيّرة تنبثق من "قلوب متصدّعة" نضجت بنار الفكر ومكابداته.

تلك القلوب المكابدة الصافية التي تحتوي الكون كله وتُندّفه في أعماقها صباح مساء، فتحلله خيطًا خيطًا، ثم تمرره عبر زخارف متنوعة ونقوش شتى لتُطرّز

المحتويات

مكابدة الفكر / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
حياة الروح / حراء (ألوان وظلال)	٤
مساكن وقرى النمل / د. يحيى وزيري (علوم)	٥
صوت مؤمن / محمد صديق (أدب)	٩
حاجة الأمة إلى "السيرة السنّة" / أ.د. الشاهد البوشيخي (قضايا فكرية)	١٠
من حضارة الأدب إلى أدب الحضارة / أ.د. حسن الأمراني (أدب)	١٥
ثمن الحرية / د. سلمان العودة (أدب)	١٨
ما هي الذاكرة؟ / د. محمد السقا عيد (علوم)	٢٠
التربية على حب الجمال / صهيب مصباح (تربية)	٢٣
يا قادمًا من بعيد / حراء (ألوان وظلال)	٢٥
المادة المضادة.. كيف ولدت؟ وأين اختفت؟ / محمد هاشم البشير (علوم)	٢٦
الإيمان واللسان / حراء (ألوان وظلال)	٢٨
الفقمة.. أميرة الغواصين / أ.د. عرفان يلماز (علوم)	٢٩
التدافع أم التنازع / د. مريم آيت أحمد (قضايا فكرية)	٣٤
صورة بلا تعليق / حراء (ألوان وظلال)	٣٧
طالب المليون / د. عبد الله بن صالح العريني (قصة)	٣٨
سؤال عن ذاتنا الحضارية / د. محمد باباعمي (قضايا فكرية)	٤١
"إمكانات" الحكم الراشد / أ.د. فؤاد البنا (قضايا فكرية)	٤٤
ابن البيطار.. عالم الصيدلة وشيخ العشابين / أ.د. بركات محمد مراد (تاريخ وحضارة)	٤٨
صديق في داخلي / د. أحمد عبد الحفيظ (علوم)	٥٢
أين تكمن حكمة المنهاج العلمي في القرآن الكريم / د. عبد الإله بن مصباح (قضايا فكرية)	٥٥
إبراء الذمة من سلوك النقمة / د. محمد إقبال عروي (قضايا فكرية)	٥٩

القلوب المتصدعة

في مفتتح هذا العدد من "حراء" نقرأ عن "مكابدة الفكر" للأستاذ فتح الله كولن؛ هذه المكابدة التي يُمْتحن بها أصحاب الفكر العالي، ورجال الرسالات الكبرى.. فعلى الرغم مما يتعرضون له من محن وأهوال تعترض مساراتهم، غير أنهم يستعذبون العذاب، ويستمرئون الصعاب، فلا تَفُتُّ في عضدهم، ولا تُخفِتُ من جذوة حماسهم عن الهدف النبيل الذي يسعون إليه، لإيمانهم الركين بأنهم يمثلون مطامح الإنسانية في أسمى معانيها، والفكر في قدس أقداسه، فلا يرتاحون ولا يسترخون، ولا ينعسون أو يتثاءبون، تنكرهم الفُرُشُ، ويجافيهم النوم.. فهم في حراك لا يتوقف، وعمل دؤوب، تنتهي أعمارهم ولا ينتهي.. أيامهم ساعات، وأشهرهم أيام، وسنواتهم أشهر، فلا يحسبون ولا يعدُّون، ويتساءلون؛ أَهُمْ من هذا الزمان، أم هم مرصودون للآتي من الأزمان؟!

ثم "الحاجة العامة للبشرية إلى النموذج الكامل في الآدمية، ليس في الإنسانية"، هكذا يكتب "الشاهد البوشيخي" في مقاله "حاجة الأمة إلى السيرة السنّة"؛ فيرى أنه لم تكن الأمة في ظرف من ظروفها التي مرت بها بحاجة إلى ما أسماه "السيرة السنّة" كما هي اليوم، فهو يرى أن من أوجب الواجبات اليوم أن يتصدى مفكرو الأمة للكتابة في هذه "السيرة السنّة" لتصبح مرجعية لكل مَن يريد الكتابة في الإسلام.

أما المبدع "حسن الأمراني" فإنه يتساءل في مقاله الموسوم "من حضارة الأدب إلى أدب الحضارة": و"هل توقف الأدب حقًّا عن رسالته في الحضارات السابقة، وهي حضارات بلغت ما بلغت من الرقي الذي يكاد يقف الإنسان في نهاية القرن العشرين من منجزاته مذهولاً، حتى يتوقف عن رسالته اليوم؟" إلى أن يقول: "وقد أسس الإسلام -قولاً وفعلاً- أدب الحضارة، فجعل الأدب رساليًّا ونزّهه عن العبث، وتلك خصيصة من خصائص الإسلام التي تشمل الوجود كله".

وفي مقاله "ثمن الحرية" يكتب "سلمان العودة" عن الحرية التي يتعشقها الإنسان، والتي لا يجد في حياته أغلى وأسخى منها، ولكن الإنسان يبقى مستعبدًا لبعض عاداته، فهو يرى أن الإنسان محاط بكثير من القيود ومنها قيد الزوجية، وقيد العمل، وقيد المدرسة العلمية أو الفكرية أو الدعوية، وقيد المجتمع، وقيد التيارات المتخالفة، وقيد السلطة، وقيد الأتباع، وقيد الجمهور، وقيد الشركاء".

وتكتب "مريم آيت أحمد" موضوعًا مهمًّا تعنونه بـ"التداقع أم التنازع" مستشهدة بالآية الكريمة ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، ومثل هذا التدافع مطلوب ومرغوب به، لأنه يحرك الأفكار، ويثير العقول ويحفزها للنهوض نحو الأفضل والأحسن.

ونود أن ننوه بمقالات كُلٍّ من الأساتذة يحيى وزيري، وفؤاد البنا، ومحمد السقا عيد، ومحمد باباعمي، وعبد الله بن صالح العريني، وبركات محمد مراد، وأحمد عبد الحفيظ، محمد هاشم البشير، وعبد الإله بن مصباح، ومحمد إقبال عروي، محمد صديق، وصهيب مصباح، وعرفان يلماز، دون الإشارة إلى مضامين مقالاتهم القيمة، محيلين القراء الأكارم إليها، وبالله التوفيق.

45

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

دورية تصدر كل شهرين من إسطنبول www.hiramagazine.com السنة العاشرة / (نوفمبر - ديسمبر) ٢٠١٤

مشيئة القدر

صغيرًا لا تستصغرْ، وضعيفًا لا تَحقِر..

فالصغير غدًا كبيرًا سيغدو، والضعيف قويًّا سيكون..

تَنبَّه وحاذر!

فأكوانٌ قامت، وعوالم نهضت، من بذرة إذا اندثرتْ..

بهذا كن مؤمنًا، ولِلَغو الحديث تاركًا.

* * *

٢ مكابدة الفكر
فتح الله كولن

١٠ حاجة الأمة إلى "السيرة السنّة"
أ.د. الشاهد البوشيخي

٠٩ إبراء الذمة من سلوك النقمة
د. محمد إقبال عروي